

طلال مهدي

الكاسكيطة و السيجار





رواية

رواية

منشورات الفقاقيع

منشورات الفقاقيع

الكاسكيطة والسيجار

الكاسكيطة والسيجار

غاني مهدي

الطبعة الأولى2015

رقم الإيداع القانوني:
2015 MO 1938

ردمك:
978—9954- 35- 634- 0

منشورات القفاقير

الطبع:



غاني مهدي

الكاسكيطة والسيجار

رواية



توطئة:

هذا الكتاب، عصارة قرابة عقد من الزمن، قضيته في المجال الإعلامي بين قناتي العصر والمغاربية ومقالاتي الصحفية. كما أن هذه الرواية لا تدعي البحث التاريخي بقدر ما تريد تبسيط الأمور للشباب الجزائري الذي يجهل الكثير عن تاريخ بلاده.

تجربتي الإعلامية سمحت لي أن ألتقي بالعديد من الشخصيات السياسية الجزائرية التي كانت في دواليب الحكم أو في المعارضة، لذا أدرجت في هذا الكتاب أمورا لم تنشر من قبل، عايشتها أو أسر لي بها بعض الوزراء والضباط والسفراء وكبار المسؤولين.

حاورت العديد من الشخصيات في البرامج السياسية التي كنت أقدمها، كما إلتقيت بالرئيس الأسبق (أحمد بن بلة) بجنيف، رئيس جبهة القوى الإشتراكية (آيت أحمد)، بالوزير الأسبق (سيد أحمد غزالي) وحاورته في (جنيف)، كما إلتقيت أو حاورت العديد من رؤساء الأحزاب السياسية على غرار، (عباسي مدني)، (عبدالله جاب الله)، (سفيان جيلالي)، (علي بن حاج)، (عبد الرزاق مقري)، الوزراء (علي بن واري) و(غازي حيدوسي)، (مراد دهينة)..

برنامج (واش قالوا فالجرنان) جعلني أتعرف عن كثب على الكثير من خبايا النظام الجزائري، ولأن شريحة كبيرة من الشباب الذين عزفوا عن السياسة تتابع هذا البرنامج، أحببت أن أصيغ هذا الكتاب بلغة بسيطة وفي متناول الجميع.

قصة حب تتقاطع مع سرد المحطات السياسية والتاريخية التي عاشتها البلاد منذ الإستقلال، كل مواعيد الحب سقطت، كما سقطت مواعيدنا كلها منذ الإستقلال من أجل بناء جزائر العدالة الإجتماعية والحرية..

كل شخصيات هذا الكتاب حقيقية، كما أن كل ملفات الفساد المذكورة، ملفات بين يدي العدالة الجزائرية والدولية ونشرتها وسائل الإعلام.

غاني مهدي

إفتتاحية

مثل كثير من الإعلاميين والمشاهدين، تأسفت وتحسرت عندما علمت بأن الزميل (غاني مهدي)، توقف عن تقديم برنامجه (واش قالوا فالجرنان)، واعتقدت أن إحدى الأصوات الجزائرية الحرة قد خنقت مجددا بطريقة أو بأخرى، لكن سرعان ما تبددت مخاوفي وابتهجت وسعدت لما تواصل معي المعني ليشرفني بكتابة تقديم لروايته هذه، ويؤكد لي بأنه توقف عن تقديم برنامجه حتى يتفرغ لكتابة كل ما يجول في خاطره على طريقته المثيرة والمشوقة.

في كل سطر، وكل صفحة من صفحات هذه الرواية، كنت أسمع وأرى (غاني مهدي) الذي عرفته من خلال برنامجه الأسبوعي، وتعرفت عليه أكثر عندما استضافني ذات يوم وأبهرني بطريقته في إدارة الحوار، ومرافقة ضيوفه والتعبير عن أفكاره وآرائه في هذا الذي يحدث للوطن من اختطاف من قبل جماعة صارت خطورتها أكبر من خطورة الإرهاب في حد ذاته.

لن يعرف (غاني مهدي) سينتابه الشعور نفسه عندما يقرأ هذه الرواية، ومن لا يعرفه سيكتشف إعلاميا وكاتبا ليس ككل الإعلاميين

والكتاب، ليس لأنه الأفضل، ولكن لأنه يتميز عن الجميع بالبساطة والصدق والجرأة، وبالشجاعة في تسمية الأشياء بمسمياتها.

ستجدون في هذه الرواية التي بين أيديكم الكثير من الحقائق والوقائع التي أعرفها شخصيا بأسلوب مباشر ومشوق، على الرغم مما تحمله تلك الحقائق والوقائع من حسرة وألم على بلد كنا نحلم بأن يكون للجميع دون استثناء أو إقصاء، وبلد مازلنا نأمل بأن يعيش فيه (الفقاقير) في كنف العزة والكرامة الفعلية، وليس عزة وكرامة الشعارات والتهليل والتطبيل.

حفيظ دراجي



للإعلامي المتألق أخي عبد الحفيظ دراجي الذي تكرّم عليّ بإفتتاحيته الطيبة

للأساتذة الكرام عبد الكريم قاسم ومحمد مغراوي على التدقيق اللغوي

للأساتذة الكرام الذين شرفوني بقراءة هذه الرواية، أنا ممتن للجميع على الملاحظات القيّمة والنصائح التي أنارت لي الطريق !

علي مهدي

إلى أمي الحبيبة (المايسة) وخالتي الحنون (زكية)!

إلى كلّ (الحراقة) الذين لم يصل زورقهم التعيس إلى الضفة الأخرى!

كلّ شخصيات هذه القصّة مجرّد حقيقة !

حل عينيكْ!

أطلـڤ التيليفون من يديكْ

أغلقْ جدّ اللابتوب وكونيكتي مع والديكْ

قولْلهُمّ نحبّكمْ.. نشتيكمْ

واشّ الشّيخ.. العجوز.. كاشما أيخصّكم؟

حل عينيكْ.. أطلـڤ التيليفون من يديكْ

كونيكتي بقلبك وعينيكْ

مع العالم لي داير بيكْ!

خاوتكْ.. خواتاتكْ..

أوجاركْ لي نسيتو من نْهار جاك الويفي

أوهو كلّ يُومْ أيْسقسي عليكْ..!

الحياة هنا تحوم حول طاولة المقهى طوال النهار، كلمات متقاطعة على الطاولة، كلمات متقاطعة بين النّاس، هنا تسكن البطالة، تجمع بين الجامعيين والمحشّشين وبائعي السّجائر وسائقي سيارات النقل (الفرود) بدون رخصة، ومهربي الخردة عبر المطارات في الحقائب..

هنا يلتقي الجميع على العاشرة صباحا أو قبيلها ليفترقوا وقت الغداء، ثمّ يلتئم الشّمل من جديد، لغط، سخرية، نكت، أحلام ضائعة!

الكلّ يتحدّث عن ألبسة فرنسا، عطر فرنسا، سيارات فرنسا، العيش في فرنسا عشعش في خيال النّاس في هذا البلد، إشترك الجميع في حلم واحد، الهجرة!

كان وسط الزبائن شابّ عاديٌّ لا غير، يحلم بالهجرة دون صخب، ينظر إلى الوجوه التي اعتاد رؤيتها، كلّ هذه الرؤوس التي ابيضّ شعرها فجأة، أجساد غادرتها الرّوح منذ زمن، عيون متعبة تحدّق في الدومينو وأوراق النّرد، كلّ شيء مغلق في وجه هؤلاء جميعا، أبواب الحياة والحاضر والمستقبل، حتى باب المرحاض مغلق منذ سنين!

ـ واحد جالس، واحد واقف، واحد ساكت، واحد يصرخ..

ـ يا جماعة شوفوا عندي ثقبة في حذائي!

ـ مراد أين هو الصاندويش نتاعي ؟

ـ واش نديروا فيها (سكرابل) يا جماعة؟

ـ نهار الخميس نشا الله نلعبوا (بالو) ضد جماعة **1200** سكن

كلّ يوم كان يلتقي رفاقه في مقهى (عمّي براهيم) في حي (سوق العصر)، هذا المكان الذي شهد هجرة الكثيرين، وعودة الكثير، الكلّ هاجر بأحلامه ومشاريعه، الكثير رجع محمّلا بالأسى والخذلان!

جرائد اليوم تُتبادل هنا وهناك، من طاولة لأخرى لا أحد يدري أبدا من الذي اشتراها بداية النّهار، لكنّها تصبح ملكا للجميع مع مرور السّاعات!

ـ أنا مسافر غدا إلى روما، هل فيكم من يريد شيئا من هناك؟

ـ صفيّ الدّين! بكم اشتريت العملة في حي الأقواس؟

ـ اليوم الفرنك راهو بخمسة عشر!

جمال:أخوها ينظر إلي يا خويا سعيد، هل تظن أنه على علم؟

سعيد: كان جا يعلم كان راهو هردلك باباك منذ مدة! علابالك في هذا (الكارطي) الحي لازم تتزوج بالطفلة قبل ما تحبّها راك تلعب بالنّار يا جدّك!

جمال: والله حاب نتزوج بيها، مرّات نحبّ نهدر معاهْ ونقلّو بلّي راني ناوي نتزوّج بأُختك ونتْهنّا..

سعيد: أُكتب له رسالة (أنونيم) مجهولة الهويّة خيرلك، حتّى رتي أوسمع بيكم غير يقتلك!

جمال: أنت (جامي) جبتلي خبر أيْفرح قينْ جدّي!

فريد: لقد وجدت أخيرا تربّصا في شركة سوناطراك، لازملي فقط أنروح نجيب بطاقة النّاخب، باش نجيب البطاقة الوطنية، قبل هذا لازملي شهادة السوابق العدلية المشكلة لازملي بطاقة الخدمة الوطنية!

سعيد: جيّد، روح صدّقْ سنتين من حياتك في ثكنة عسكرية وخلاصْ، وهكذا كي تولّي تلقى التربّص يستنّى فيكْ يا الجايحْ، هذا إذا لْقيتْ سوناطراك مازالت!

ضحك الجميع إلا فريد..

لازال يتذكّر ذلك اليوم الممطر الذي دخل عليهم فيه نفر ملتحون يلبسون القشاشب، أخذ أحدهم الكلمة وكأنه في تجمع سياسي:

(هذا النظام يا خاوتي نظام طاغي، يكذب عليكم ويسرق مال الشعب، اليوم عندكم الإمكانية باش أتغيروا الأمور لازم تنتخبوا عل رقم 6، إنتخبوا الفيس)، الله أكبر! علت في المقهى بعد كلمته، ثم غطت جدران المقهى لافتات الحزب الإسلامي!

(6).. هو الرقم الذي يرمز إلى حزب الجبهة الإسلامية للإنقاذ في الإنتخابات البلدية، أولى انتخابات حرة تشهدها الجزائر منذ الاستقلال!

(الفيس) حزب ظهر بعد أن سمح الرئيس (الشاذلي) بالتعددية الحزبية، وسرعان ما بدّد خوف الشعب، فأصبح النّاس ينتقدون كلّ شيء دون الذعر من رجال الشرطة ومخابرات الأمن العسكري، (الأس أم) الحرفان اللذان يرمزان لجهاز الأمن العسكري الذي أرهب الشّعب منذ الاستقلال، أصبح بإمكان المواطن اليوم نطقهما دون همس في المقاهي والأماكن العامة!

أسئلته عن تاريخ الجزائر، بدأت صباح يوم ممطر، كان في القسم يرسم المنظر نفسه على الطاولة الذي إعتاد رسمه منذ سنين، شاطيء بحر يحيطه نخيل، الشمس وهي تغيب في الأفق، زورقا شراعيا تحلق حوله طيور النورس، وآثار أقدام على الرمل.

فجأة دخل الناظر العام إلى القسم وطلب من الجميع الخروج والإلتحاق بقاعة المحاضرات أين جلس الجميع في دهشة، كانت أول مرة يدخل فيها الطلبة إلى تلك القاعة، لم يسبق أن احتضنت هذه القاعة تظاهرة ثقافية من قبل!

أخذ المدير الكلمة ليرحب بالضيف الذي جلس بجانبه، رجل شاحب الوجه، تحت أنفه شنب غيرت لونه السجائر المتتالية التي كان يدخنها بشراسة، يرتدي معطفا بنيا وربطة عنق ثم قال:

ـ أنا مسرور اليوم بزيارة ممثل جبهة التحرير الوطني الذي سيحدثكم عن أمر مهم!

جبهة التحرير الوطني لم تكن تمثل للكثير سوى أسماء لشهداء ماتوا خلال حرب التحرير وخلدهم فيلم (لا باتاي دالجي)، جبهة التحرير الوطني كانت مقترنة بالشعارات الرنانة التي كانت مكتوبة على كل البنايات الرسمية مثل شعار (من الشعب وإلى الشعب)، كان الطلبة يعلمون أن جبهة التحرير الوطني هي الحزب الحاكم، لكنها المرة الأولى التي يزور الثانوية ممثل (للأفلان)، الأمر إذا في غاية الأهمية!

أخذ الممثل المهم الميكروفون وسرد على مسامع الطلبة بطولات الكثير من الشخصيات الجزائرية التي هزمت الجيش الفرنسي، ثم ختم تدخله قائلا:

ـ يا ولادي لقد حان الوقت لإعادة كتابة تاريخ بلادنا!

رفع يده ليسأل الضيف المهم:

ـ هل سلمت لنا فرنسا أرشيفا جديدا يسمح لنا بإعادة كتابة تاريخنا، أم أنكم أدركتم أن التاريخ الذي كنا ندرسه في الكتب كان غير صحيح يا سيدي؟

سكت ممثل جبهة التحرير طويلا ثم نظر إلى المدير الذي طلب من الجميع الإلتحاق بأقسام الدراسة!

أيقن منذ ذالك اليوم، أن جبهة التحرير الوطني لن تقول للشعب كل الحقيقة عن الثورة الجزائرية..

الكاسكيطة الأولى

الحرب أمر في غاية الأهمية، لذا يجب علينا أن لا ندعها بين أيدي العسكر!

(ونستون تشرشل)

في سنة **1940** كان (أحمد بن بلة) رقيبا في كتيبة المشاة **141** التابعة للجيش الفرنسي ب(مرسيليا)، وفي **1944** قلده الجنرال (ديغول) الميدالية العسكرية عرفانا بمواقفه البطولية خلال الحرب العالمية الثانية.

في نوفمبر **1954**، كان (بن بلة) خارج البلاد، لكن إسمه خلد بين أسماء الرجال الذين أشعلوا فتيل الثورة التحريرية ضد المستعمر الفرنسي، ولأن (بن بلة) كان يعتبر المسؤول الأول عن تمويل جيش التحرير الوطني فإن المخابرات الفرنسية حاولت عدة مرات قتله، بوضع قنبلة في مكتبه بالقاهرة أو بمحاولة إغتياله على يد جاسوس في فندقه!

في **22** أكتوبر **1956**، طائرة (أطلس للطيران) التي كان على متنها (بن بلة) و(خيدر) و(محمد بوضياف) و(آيت أحمد) والمتجهة من مدينة (الرباط) المغربية إلى العاصمة التونسية، تجبر على الهبوط من طرف طائرتين عسكريتين فرنسيتين ، الشخصيات الثورية التي كانت على متن الطائرة سلمت نفسها دون أن تطلق رصاصة واحدة على الجنود الذين ألقوا عليها القبض رغم حيازتها للسلاح!

(بن بلة) وأصحاب هذه الرحلة قضوا ست سنوات في السجون الفرنسية، في سجن (لاصانتي) في جزيرة (آكس) ثم في قصر (لافوسارديار) ببلدية (توركان)، ليطلق سراحهم في **1962** بعد إتفاقيات (إيفيان)!

قصة منظومة الحكم في الجزائر، بدأت في بهو فندق فخم في مدينة (جنيف) السويسرية، نحن في مارس **1962** والوفد الجزائري الذي سيمثل البلاد في إتفاقيات (إيفيان) في جولتها الأخيرة يقضي وقته في قراءة المجلات الرياضية والتجوال في محلات المدينة وعندما يحين وقت الغذاء يطلب طاكسي ليقله إلى أحسن مطعم إيطالي في المدينة!

في **18** مارس تم التوقيع على هذه الإتفاقيات التي بموجبها أعلن وقف إطلاق النار، كما تم في نفس اليوم إطلاق صراح سجناء طائرة (أطلس للطيران)..

إنتهت الحرب ضد المستعمر، لكن حربا أخرى تنذر باشتعالها للإستحواذ على السلطة والحكم في الجزائر!

جيش الحدود الذي كان قابعا يترصد، دخل الجزائر بمدرعاته وحشوده، هذه القوة التي كان الثوار في أمس الحاجة إليها أيام الثورة، دخلت البلاد بعد أن حطت الحرب أوزارها..

كما كانت (هند بنت عتبة) تحرض القرشيين على القتال في معركة أحد، كان (علي منجلي) يحرض الجنود من جيش الحدود قائلا لهم بأعلى صوته:

- إن جيش الداخل لا يساوي شيئا، أنتم المستقبل!

الجيش الذي كان يأكل الحشيش، وينام في المغارات، ويعذب بالحديد والنار لا يساوي شيئا إذا أمام الجيش الذي قضى كل أوقاته في لعب (الديمينو) وأكل (الزلابية) في تونس، ويتلذذ بالحريرة والطاجين في المغرب!

(بن يوسف بن خدة) الذي كان رئيسا للحكومة المؤقتة لم يعمر طويلا أمام دسائس قيادة الأركان وجيش الحدود، هذا الأخير غادر ليلة السابع من شهر جوان مؤتمر (طرابلس) الذي لم ترفع جلسته لحد الساعة، نظرا للصراع الحاد الذي نشب بين كل زعماء الثورة الجزائرية، وفي **10** سبتمبر **1962**، حملت مدرعات (بومدين) صديقه (بن بلة) إلى الحكم!

هذه المدرعات التي ستقوم بهذا المهمة دون هوادة، وستحدد من يحكم الجزائر في كل مرة!

في حكم (بن بلة) عرفت الجزائر حالة فوضى عارمة، كان الرجل يستفرد بكل القرارات ويسجن كل من يعارضه حتى وإن كان من

مقربيه، رفاق الطائرة المختطفة (آيت أحمد) و(بوضياف)، كانا أول من ذاق ويلات سجونه!

حتى النسوة اللاتي يمتنعن عن التصفيق عندما يمر موكبه، ترمين في غيابات السجون، هذا ماحدث ل(زهور سلامي) التي كانت صحفية في مجلة (ريفوليسيون أفريكان) سنة 1964!

ـ أنت تتصرف كالسياسي المتعفن!

من أجل هذه الجملة حكم (بن بلة) على الكولونال (شعباني) بالموت، وبموت (شعباني) تنفس ضباط فرنسا الصعداء، لأنه كان عدوهم اللدود، كونه طالب دون هوادة بتنحيتهم من المناصب الحساسة في الجيش، وكان ضد سياسة (بومدين) في الإعتماد عليهم في تكوين وتطوير الجيش الجزائري.

لذلك سارع (بومدين) إلى تطبيق حكم الإعدام الذي أصدره الرئيس (بن بلة) في حق رجل من خيرة ما أنجبت الثورة الجزائرية، (الشاذلي) كان من بين الضباط الذين حكموا على (شعباني) بالإعدام في محكمة عسكرية بمدينة (وهران) أين كان (شعباني) مسجونا، وهو الذي أعطى الأمر برميه بالرصاص في غابة بالقرب من منطقة (كاناستال) بوهران.

في 3 سبتمبر 1964 قتل (بن بلة) و(بومدين) و(الشاذلي) الكولونال (شعباني) وأمروا بدفنه في مكان مجهول!

تحت حكم (بن بلة) كان إقتصاد البلاد منهارا خاصة بعد رحيل قرابة مليون معمر كانوا يسيرون البلاد ويستغلون الأراضي الزراعية!

(بن بلة) كان دكتاتورا يعشق كرة القدم، فبينما كان يستمتع بمباراة الجزائر ضد البرازيل بمدينة وهران، كان (بومدين) يضع

اللمسات الأخيرة للإطاحة به، وفي طريق العودة إلى العاصمة أحس (بن بلة) بأن هنالك حركة غير عادية في العاصمة عندما سمع دوي المدرعات في الطريق، ثم زادت شكوكه لما وجد بمقر سكناه (فيلا جولي) أن حرسه الخاص قد غير دون علمه!

في الليلة نفسها أخرجه (طاهر زبيري) مقيد اليدين في بدلة نومه ورمى به في سجن (الصومعة) الذي كان مدرسة دشنها (بن بلة) ليدرس فيها أبناء الشهداء وحولها (بومدين) إلى سجن!

(بن بلة) أسقطه الرجل الذي قال له في (فيلا ريفو) بتلمسان سنة 1962 بأن الجيش كله سيقف وراءه!

الكاسكيطة الثانية

(بومدين) الذي أخذ الحكم بالقوة، سيدافع عنه بالعنف!

(جون بول سارتر) أكتوبر 1965

وكما جرت العادة، عادت المدرعات لتضع رئيسا مكان آخر، ففي 19 جوان 1965 قام (هواري بومدين) بإنقلاب على (بن بلة) واستولى على الحكم بعد أن أمر بسجن رفيق دربه في الكفاح، والحرب سجال يوم لك ويوم عليك، والجيش الذي يقف وراءك سيقف يوما في وجهك!

منذ اعتلاء (بومدين) للحكم، سيّرت الجزائر بيد من حديد، كلّ من تسوّل له نفسه انتقاد سياسة الحزب الواحد، أو التشكيك في الخيارات الاشتراكية للبلاد كان مصيره التعذيب والسّجن!

تذكر أمه التي كانت كلما رأته وضعت قبلة على عينيه، وقالت لصديقاتها:

- هذا أعز أولادي، كله يسر حتى حمله وولادته!

ثم تمضي في سردها لحكاية سمعها منها ألف مرة، كيف كانت تحمل القفة إلى أخيه الذي سجنه (بومدين)، وكم كانت تلك الأيام قاسية، كان ينظر إليها وهي تمسح دموعها التي تنزل سوداء بعد أن إختلطت بكحل عينيها، ثم يقبل جبينها ويغرق في رائحتها الجميلة!

اليساريون كانوا أوّل من دفع ثمن المعارضة في الجزائر، في سنة 1967 ألقى رجال المخابرات القبض على أخيه الذي لم يتجاوز الثامنة عشر من عمره، ورموه في زنزانة بتهمة الإنتماء للحزب الشيوعي، كانت أمّه تحمله في بطنها وتحمل كلّ يوم قفّة الطّعام لأخيه في السّجن!

اليوم عندما يتبادلان أطراف الحديث عن المعارضة السياسية في البلاد يذكّره أخوه كلّ مرّة، بأنّه كان أصغر سجين سياسيّ في الجزائر، كان يردّ عليه مازحا:

ـ وأنا دخلت السجن وأنا جنين في بطن أمي!

(بومدين) هو من حمى ضباط فرنسا الذين أصبحوا الحاكم الفعلي للجزائر، كان يرد على كل من كان ينتقد هؤلاء الذين كانوا ضباطا صغار في الجيش الفرنسي والتحقوا بثورة التحرير في ربع الساعة الأخير، قائلا:

ـ سأضع حجرا في فم كل من سينتقد ضباط فرنسا بعد اليوم!

ضباط حركة 14 ديسمبر1967 وعلى رأسهم العقيد (طاهر الزبيري)، حاولوا الإطاحة ب (بومدين) لكن إنقلابهم فشل وألقي القبض على جلهم، مهندس الإنقلاب (الطاهر زبيري) هرب من الجزائر وبقي أكثر من ثلاث عشرة سنة هائما من دولة لأخرى دون أن يتحصل على اللجوء السياسي، لكن الضباط الذي كانوا معه ولم ينجحوا في الفرار من غضب بومدين، قضوا سنين عديدة في سجون (الكولونال)!

(بومدين) لا يغفر حتّى للموتى من معارضيه، الجزائريون يجهلون أنّ جثماني الشهيدين (سي الحوّاس) و(الكولونال عميروش) بقيا دون دفن في زنزانة تحت مديريّة للدرك الوطني حتّى سنة 1982!

(بومدين) ذهب إلى أبعد من ذلك حينما منع المخرج أحمد راشدي من إبراز شخصية (سي عميروش) في فيلم (العفيون والعصا) المقتبس من كتاب (مولود معمري)، الدكتاتور يخاف دائما من ظل الموتى الذين قتلهم !

(بومدين) جعل من الجزائر سجنا كبيرا مفتوحا على السّماء فقط، سجن لا يخرج منه المواطن الجزائري إلا برخصة (خروج من الوطن) تسلّمها السلطات الأمنية للقليل من الجزائرين!

(بومدين) كان يحكم على الشّخص الذي يشك في ولائه بالسّجن مدى الحياة، نظرة واحدة كانت تكفي لكي يصبح المغضوب عليه في قائمة المفقودين، الكثير من الجزائريّين قضوا سنين طويلة في السّجون الجزائريّة دون محاكمة، بتهمة التآمر ضدّ البلاد، سجن (سانتا كروز) بوهران الذي بناه الإسبان حصنا منيعا للدفاع عن المدينة ومراقبة القراصنة كان من بين السّجون اللاإنسانية التي عذّب فيها العشرات من معارضي (الكولونال)، (سليمان عميرات) الذي كان من الأوائل الذين إلتحقوا بجيش التحرير، قضى هو وثلاثة من رفاقه أكثر من أربع سنين في غيابات هذا السجن الرهيب التي كانت جدرانه حجارة الجبل الذي بني عليه وكانت زنازينه كهوفا تحت الأرض لا يخرج منها أحد إلا وقد فقد كل ما فيه من إنسانية!

كان (بومدين) لا يغفر لأحد، حتى الذين أسعفهم الحظ في الهروب إلى الخارج، أرسل لهم رجاله ليقتلوهم في ظروف غامضة في الكثير من العواصم الأوروبيّة، (كريم بقاسم) وُجد مخنوقا بربطة عنقه في فندق بـ(فرانكفورت) الألمانية و(محمد خيدر) أغتيل في (مدريد) بإسبانيا، العمليتان تحملان إمضاء جهاز مخابرات مواز كان يديره (سليمان هفمان) بمباركة (بومدين) !

لكن للرجل إنجازات تحسب له، في عهده بنت الجزائر قاعدة صناعية حديثة، سمحت للمواطن الجزائري بأن يستهلك منتوجات جزائرية، فصنع التلفاز والثلاجة والدراجة والشاحنة والألبسة الرياضية في الجزائر، هذه الثورة الصناعية خلقت مركبات صناعية ضخمة كان بإمكانها أن تجعل من الجزائر بلدا رائدا في القارة الإفريقية لكن الجزائر أضاعت على نفسها هذه الفرصة، وجاء بعد وفاة (بومدين) من أقبر هذه القاعدة الصناعية وأقبر معها حلم الجزائر في التطور والرقي!

من البديهيّ أن يغطس الرّجل الذي يجمع العسل إصبعه ليذوق قليلا!

كان هذا جواب (بومدين) للدّفاع عن المقرّبين منه الذين اغترفوا من خزينة البلاد حتّى بلّوا رمقهم، والشّعب حينها يقف لساعات طوال في طوابير من أجل القهوة والزيت والطّماطم!

(بومدين) قائد جيش الحدود الذي إستولى على السلطة، نجح في خلق ديناميكية صناعية، لكنه أخفق في كل خياراته الإستراتيجية الأخرى، (الشاذلي) كتب في مذكراته أن (بومدين) أسر إليه قبل موته أنه ندم على العديد من قراراته !

الثورة الزراعية والخيار الإشتراكي، كل هذا ذهب أدراج الرياح، لم يبق من دولة (بومدين) سوى البوليس السياسي!

جهاز المخابرات في الجزائر، كانت المؤسسة الوحيدة التي تشتغل كالساعة السويسرية!

الكاسكيطة الثالثة

لا شيء أخطر من صديق جاهل!

(جون دو لافونتان)

بعد موت (بومدين) في ديسمبر 1978، قرر الجيش مرة أخرى من سيتولى رئاسة البلاد، الشعب لازال ساذجا لا يحسن الإختيار!

وقع الإختيار على العقيد (شادلي بن جديد)، الذي كان قائدا للناحية العسكرية الثانية ب (وهران)، (بن جديد) كان يحب الرياضة والسيارات الجميلة والغطس، حتى أنه كان يقضي جل وقته في السباحة ولعب (التنس) والإستجمام!

(بن جديد) أتى على كل ما بناه (بومدين) فجعله جذاذا، فأوقف بناء القرى الفلاحية، وقزم الشركات الكبيرة التي بناها (بومدين) بحجة أنها صعبة التسيير لكبر حجمها!

(بن جديد) الذي أخفق في دراسته الإبتدائية كما كتب في مذكراته، كان لا يحب الكتب، فقام برفع التدعيم عن الكتاب وصرح بملء فيه:

- لا يمكن لكل مواطن جزائري أن يمتلك مكتبة في بيته!

لكن في نفس الوقت أفرغ خزينة الدولة من ثلاثة ملايير دولار في وقت قياسي، ثلاثة ملايير كان (بومدين) قد أودعها في البنك المركزي لأوقات العسرة التي ستمر بها البلاد إذا ما إنهارت أسعار البترول، لكن (شادلي) فضل إستيراد الموز ومواد إستهلاكية أخرى لربح محبة الشعب!

في عهد هذا الرجل إمتلأت السجون، وكل من نادى بالتغيير لمنظومة الحكم وجد نفسه وراء القضبان (لويزة حنون)، (علي يحي عبد النور)، (سعيد سعدي)، (عبد الله جاب الله)، (عباسي مدني)، (علي بن حاج)، كلهم قبعوا في سجون (الشادلي)..

في وقت هذا (الكولونيل) عذب مواطنون لحيازتهم جرائد ممنوعة تابعة للحزب الشيوعي!

(الشادلي بن جديد) جعل من الجزائر بلدا تابعا للعالم المتأخر، يعيش على عاتق آبار البترول والأموال التي يقترضها من البنك العالمي بنسب خيالية أفقرت البلاد والعباد، وصارت الجزائر على فوهة بركان!

في 5 أكتوبر **1988** إنفجر البركان، وخرج الآلاف من الشباب في شوارع العاصمة بهتافات (شادلي أساسان)، وكما جرت العادة خرجت مدرعات الجيش وأطلقت الرصاص على المتظاهرين!

الجنرال (نزار) الذي ينتمي لضباط فرنسا الذين فرضهم (بومدين) ورقاهم (شادلي) إلى جنرالات، برر قتل **500** شاب جزائري في تلك الأحداث قائلا:

ـ لم يكن بحوزتنا الرصاص المطاطي!

تسارعت الأحداث، فقرر (الشاذلي) الرضوخ لمطالب الشعب التي لم تكن تقتصر على الزيت والحليب فقط، بل كان الشعب متعطشا للحرية والكرامة، خرج الشباب إلى الشارع لوضع حد لغطرسة الحزب الواحد وضباط فرنسا الذين كانوا الحاكم الفعلي للجزائر!

بعد أحداث أكتوبر **1988**، عاشت الجزائر إنفتاحا سياسيا لم تشهده دولة عربية من قبل، وخرجت للعلن أحزاب تمثل كل التيارات السياسية التي كانت تنشط في السرية، أحزاب يسارية وشيوعية وإسلامية أعتمدت وسمح لها بالمشاركة في أول إنتخابات حرة تشهدها الجزائر!

في سنة **1990** ولأول مرة منذ الإستقلال، شاركت في الإنتخابات البلدية والولائية كل الأحزاب الجديدة المعتمدة بعد السماح بالتعددية الحزبية في الجزائر!

ومنذ ذلك الحين لم يعد حزب (الأفلان) يتحكم وحده في اللعبة السياسية الجزائرية!

نظرية (مورفي) تنصّ على أنّ الأشياء التي من شأنها أن تتدهور.. سوف تتدهور!

فاز الرقم (6) في معظم البلديات، يحكى أنّه في نفس اليوم في- بلدية (بازر صخرة) - بمدينة (العلمة) شرق الجزائر، فاز حصان في سباق الخيل يحمل رقم (6) لم يسبق له أن فاز بسباق واحد طيلة مشواره!

حينما يبتسم لك الحظ، تفرش لك كلّ السبل بالأزهار!

تدهورت أوضاع البلاد بعد الانفتاح السّياسيّ المزعوم إلى درجة لم يكن يتوقّعها أحد، الجزائر التي كانت ستدخل في ساحة الدّول الديمقراطية، دخلت في حرب ضروس لا يعلم خباياها أحد لحدّ السّاعة.

فبعد نجاح الفيس في الانتخابات البلدية، زادته الانتخابات التّشريعيّة قوّة أكثر ليصبح أكبر حزب في الجزائر أمام الحزب العتيد (الأفلان)، في نفس الوقت الجيش أو (الأبكم الكبير) كما يسميه الفرنكوفيون في الجزائر كان يعلم أنّ (الفيس) سوف تكون له الأغلبية في البرلمان!

هكذا صرّح الجنرال (نزار) لوسائل الإعلام الدّوليّة بعد الفوز السّاحق للفيس.

الجيش لم يقبل بهذه الأغلبية السّاحقة للحزب الإسلامي، هذه الأغلبية التي ستفتح للتيار الإسلامي أبواب قصر الرّئاسة على مصراعيها، فزجّ ب (عبّاسي مدني) رئيس الفيس و(علي بن حاج) الرّجل الثاني في الحزب في السّجن، وزجّ بالبلاد في غياهب عشريّة دمويّة ذهب ضحيّتها قرابة ربع مليون جزائري!

رئيس الفيس الدكتور (عبّاسي مدني) سياسيّ بارع التحق بصفوف جبهة التّحرير الوطنيّ في السّاعات الأولى وشارك في أولى العمليّات العسكريّة ضدّ المستعمر الفرنسيّ ليلة اندلاع ثورة التحرير في الواحد من نوفمبر 1954..

(عبّاسي) أستاذ جامعيّ سجنه المستعمر الفرنسي أيّام الاحتلال، وسجنه الكولونال (شادلي بن جديد) بعد الاستقلال لذا كان يحظى بتقدير واحترام كبيرين في السّاحة السّياسيّة الجزائريّة، ذراعه الأيمن (علي بن حاج) أستاذ في المستوى المتوسّط محسوب على التّيار السلفيّ إشتهر بخطاباته النّاريّة اللاّذعة، وشجاعته في نقد منظومة الحكم الفاسدة والمافيا السّياسيّة الماليّة التي تتحكّم في كلّ دواليب الدّولة!

(عبّاسي مدني) و(بن حاج) مكثا في السّجن 12 سنة، بتهمة التحريض على العنف وزعزعة استقرار البلاد، حكمٌ نطقت به محكمةٌ عسكريّةٌ ضدّ مدنيين !

كان الحكم 12 سنة، فبع الرجلان في السجن 12 سنة دون نقصان!

(عبّاسي) الذي قضى تسعة عشر عاما من عمره في السجن، تحت حكم فرنسا مرة، وتحت حكم ضباطها مرة أخرى، قرر العيش في منفاه الإختياري في إمارة خليجية، (بن حاج) اختار البقاء في الجزائر، تحت حراسة مشدّدة لرجال الأمن، يتتبّعون أثره ليل نهار، الرجل الذي دخل السجن متعصّبا لرأيه، خرج منه وهو شخص مغاير تماما، تعدّدت قراءاته في السّجن ولم تقتصر على الكتب الدينيّة، (ديكارت) و(جون جاك روسو) فتحا له آفاقا أخرى، فصارت تحاليله السّياسيّة وأفكاره الناقدة لمنظومة الحكم أكثر واقعيّة ممّا كانت عليه من قبل، (بن حاج) خرج من السّجن وهو سياسيّ محنّك!

جردت العدالة الجزائرية (علي بن حاج) بعد خروجه من السجن من كامل حقوقه المدنية، فصار ممنوعا من العمل، ممنوعا من النّشاط السّياسيّ، ممنوعا من الاشتراك في أيّ تجمّع شعبيّ أو مظاهرة، ممنوعا حتّى من بيع (المعدنوس والدبشة) والتوابل في السّوق!

الفيس حزب سياسيّ اخترقه بعض المخلصين!

هكذا عرّف الدكتور (مراد دهينة) الجبهة الإسلاميّة للإنقاذ يوما ما..

(مراد دهينة) متحصل على دكتورا في الفيزياء النووية من معهد (ماساتشوستس) للتكنولوجيا، الذي يعتبر من بين أحسن عشر جامعات في العالم، كما تحصل أربع وستون باحثا من هذا المعهد على جائزة نوبل.

في سنة 1979، هنأ الرئيس (الشادلي) الطلاب المتفوقين في شهادة الباكالوريا، كان من بين هؤلاء الشباب، (مراد) الذي تحصل على الشهادة بتقدير جيد جدا!

في 1983، نال (مراد) الشهادة العليا للدراسات تخصص فيزياء من جامعة العلوم والتكنولوجيا بالعاصمة، (مراد) كان الأول في دفعته، هذا ما سمح له بالحصول على منحة دراسية بالولايات المتحدة!

في معهد (ماساتشوستس) بالقرب من مدينة (بوستن) الأمريكية، كان (دهينة) باحثا في فريق الدكتور (ساموييل تينـڨ)، الحائز على جائزة نوبل للفيزياء، وبعد أن تحصل على شهادة الدكتورا في أقل من سنتين في 1987، إلتحق بالمدرسة الفيديرالية المتعددة التقنيات (بزوريخ) في سويسرا، التي تعتبر بدورها رائدة في مجال البحث العلمي!

(مراد دهينة) مع المئات من الدكاترة الذين ساندوا (الفيس)، يدمرون النظرية التي كان يتداولها التيار الإستئصالي في الجزائر، ويبطل ما كتبه (شفيق مصباح) في كتابه (الإشكالية الجزائرية)، عن أن (الفيس) لم يكن يملك نخبة وإطارات قادرة على تسيير دولة بحجم الجزائر!

بعد توقيف المسار الإنتخابي في الجزائر، ومنع (الفيس) من النشاط السياسي، ترأس (دهينة) المكتب التنفيذي (للفيس) في الخارج مدة من الزمن، ثم تخلى عن هذا المنصب بعد خروج (عباسي) و(بن حاج) من السجن.

لم يكن تعريف (دهينة) للفيس بعيدا عن الحقيقة، الكثير من كوادر هذا الحزب، والذين ساهموا في إنشائه في السّاعات الأولى كانوا قريبين من جهاز المخابرات، العديد منهم تحصّل بعد إيقاف التجربة الدّيمقراطيّة في الجزائر على حقائب وزاريّة أو على مناصب سامية في الدّولة، (أحمد مرّاني) أصبح وزيرا للشّؤون الدينية و(سعيد قشّي) رحمه الله وزيرا للتكوين المهني..

(بن عزّوز زبدة) كان الرّقم الثاني في الجبهة الإسلامية للإنقاذ، كان إماما لمسجد بحي (ميشال) بالقرب من (باش جراح) بالعاصمة الجزائريّة، كان يعيش مع زوجتين أنجبتا له عشرة أولاد..

كانت حالته مزرية للغاية، عائلته الكبيرة كانت تعيش في غرفتين محاذيتين للمسجد، فكان (أحباب ربي) يتصدّقون عليه بقليل من المال كلّ شهر!

كان النّاس يسمّون (بن عزّوز) شيخ (كشك) الجزائر، لأنه كان كفيفا مثله وبسبب خطبه الناريّة ضدّ السّلطة في الجزائر!

وبعد ظهور الفيس، كان (بن عزّوز) هو من يستلم الهدايا والإعانات التي كانت تصل إلى (الفيس)..

لمّا منع (الفيس) وسجن قادته، سافر إلى تركيا مع عائلته، حيث فتح هنالك شركة للتصدير والاستيراد، وفي نفس الوقت كان يمثل (الفيس) في العاصمة (إسطنبول)..

هنالك فُتحت السّماء على الشيخ (كشك) !

في 1995، التقى بمبعوثين من الرّئيس الليبي قدّما له صكّا بمليون دولار، مرّة أخرى تحصّل على صك بمبلغ 40 ألف دولار أمضاه (أبو عمّار ياسر عرفات) الرّئيس الفلسطيني، (بن بلة) تنازل له عن مكتبة في باريس، لصالح (الفيس)!

(بن عزّوز) اليوم يعيش في (فيلا) ضخمة في منطقة (ميشال)، ولكي لا يحسّ أولاده بالضّيق اشترى (فيلا) ثانية في حي (الينابيع) بالعاصمة الجزائريّة!

(بن عزّوز) يملك اليوم شركة (وفاء) للورق!

كان الدكتور (دهينة) محقا في تعريفه لهذا الحزب، الكثير من الذين إخترقوا (الفيس) أصبحوا اليوم رجال أعمال خرجوا من العشرية السوداء التي ذاق فيها الشعب الجزائري الويلات، وهم يتربعون على ثروات طائلة!

بهذه الذهنية سيّر أكبر حزب عرفته الجزائر بعد الاستقلال، شخصيتان كانتا تمثّلان لوحدها الفيس في سياسته العامّة، (عبّاسي) كان يمثّل الحكمة والرّزانة والخداع السّياسي، و(علي بن حاج) لا يؤمن إطلاقا بالدّيمقراطية وكان يصرخ بأعلى صوته في كلّ التجمّعات التي كان ينشّطها في كلّ مدن الجزائر:

ـ لا ميثاق لا دستور قال الله قال الرّسول!

هكذا تقاسم الرجلان الأدوار في خطابهما السّياسي، يد من حديد في قفاز من حرير!

لكنّ المؤسّسة العسكريّة وجهاز المخابرات حالا دون وصول الفيس إلى الحكم رغم فوزه بكلّ الانتخابات التي شارك فيها..

المخابرات كانت تعلم كلّ صغيرة وكبيرة تدور في مقرّ الفيس، حتى أنّ (عبّاسي) كان يهمس في أذن المحامي (سي مزراق) ـ الذي نفته السّلطات الفرنسيّة إلى (بوركينافاسو) بعد أن اختلط الحابل بالنّابل ـ كلّما أراد التحدّث معه في أمور سريّة داخل مقرّ الحزب.

عدّة مّرات طلب منه التكلّم بصوت منخفض لكي لا يسمعهما من هو في الطّابق السّفلي!

جهاز المخابرات تابع الفيس منذ ولادته حتّ أجهض حلمه في الوصول إلى الحكم، ألم يرسل مبعوثا خاصّا ليهمس في أذن (عبّاسي) بأنّ الفيس على مرمى حجر من قصر الرّئاسة!؟

هذا التحفيز الخبيث، جعل قادة الفيس لا تتنازل عن فكرة الإضراب العامّ الذي شلّ الحياة في العاصمة الجزائريّة.

هذا الإضراب الذي اتّخذه العسكر ذريعة للبدء في إستعمال القوّة ضدّ مناصري الفيس!

غابت الحكمة وسقط الحزب الإسلامي في فخ حيكت خيوطه في الغرفة السوداء، وعندما تغيب الحكمة فإنك تجعل من الصديق عدوا..

كان الجيش يريد المواجهة مع مساندي الفيس، قادة الفيس قدّما للجنرالات هديّة على طبق من فضة!

كان الفيس يمثّل المتنفّس الوحيد للشّعب الجزائري، الشعب الذي سئم من أكاذيب الجماعة الحاكمة التي تربّعت على السّلطة في البلاد منذ الاستقلال بقوّة الدبّابة والشّرعية التّاريخيّة!

كما أنّ الشّعب كره من مسلسل الانقلابات التي كانت أهمّ ميزة تميّز بها نظام الحكم في الجزائر، بن بلة انقلب على الحكومة المؤقتة، بومدين انقلب على بن بلة، وضبّاط فرنسا انقلبوا على إرادة الشّعب، لا جديد في الأفق!

لكن عوض أن يتبنّى (الفيس)، التغيير اللاّعنفي، خرجت منه جماعة لا تؤمن سوى بالعنف، جلّهم من (أفغان الجزائر) ومن بقي من أتباع (بويعلي) مثل (منصوري ملياني) و(عزالدين بعة).

(أفغان الجزائر) قاموا بخلق شرطة إسلامية عنّفت الشّعب، كم من مرّة ضُرب شابّ لأنّه كان يتفسّح في حديقة مع خطيبته، كم طلاب رُموا بمادّة الأسيد الحارقة لأنّهم كانوا في خلوة غير شرعيّة!

(سعيد مخلوفي) ضابط سابق في الجيش الجزائري، كان لايتخلّ عن مسدّسه أيام الإضراب، وكان ينادي للعصيان المدني حتى قبل منع (الفيس)!

(علي بن حاج) رغم نقده اللاّذع للسّلطة، كان يمنع (سعيد مخلوفي) من الدّخول إلى المكتب الوطني لأنّه كان يحمل السّلاح!

(عبّاسي مدني) هو الآخر، طلب من (مخلوفي) عدم زيارة المكتب الوطني قائلا له:

- نحن نحارب النّظام سياسيّا وليس بلغة السّلاح!

هؤلاء المتطرّفون، هم الذين أسقطوا (الفيس)، قبل أن يطيح به النّظام!

جهاز المخابرات وجد في هذه الفئة من السّلفية الجهاديّة، مفتاحا لتوقيف زحف (الفيس) نحو السّلطة!

هنا مربط الفرس!

جهاز الإستعلامات كان قد اخترق هذه الجماعات خلال تواجدها في الجبال الأفغانية، إطار متقاعد كان يعمل في مطار العاصمة الجزائرية أكد له أنه شاهد شاحنات عسكرية تأتي لنقل المقاتلين العائدين من الجهاد في (أفغانستان) عند نزولهم من الطائرة إلى وجهة مجهولة!

الجزائر أيامها كانت تقدم معلومات تستقيها من (أفغان الجزائر) لحليفها الإستراتيجي (روسيا).

عديدة هي التيارات التي كانت مهيكلة في (الفيس) لكنّها لا تؤمن بالنّشاط السّياسيّ، بل كانت تريد الدّخول في مواجهة مسلّحة مع النّظام، لذا كانت في حوزة المخابرات، قوائم بأسماء من يمكنهم تبنّي العمل المسلّح في حالة منع (الفيس)!

كثيرة هي الشّهادات التي تتحدّث عن وجود خنادق مجهّزة في الجبال قبل توقيف المسار الانتخابيّ في الجزائر يوم **11** جانفي **1992**!

كما أنّ الهروب الجماعي لأكثر من **1200** سجين من سجن (تازولت) بولاية (باتنة) يوم **10** مارس **1994** ـ هذا السّجن الذي يعتبر من أحصن وأكبر السّجون الجزائرية ـ يعتبره الكثيرون بمثابة الشّرارة التي أشعلت الجزائر نارا ودمارا!

سكّان المنطقة لاحظوا ليلة الحادثة، تواجدا مكثّفا لسيّارات غريبة تحوم حول السّجن، الكلّ لاحظ ذلك سوى السّلطات ورجال الأمن!

عدد كبير من رجال المخابرات الجزائريّة انظمّ إلى الجماعات المسلّحة في الجبال بعد هذه الحادثة!

الشّيء الغريب في الأمر، هو بداية التصفيات الجسديّة في صفوف الجماعات المسلّحة.

كان لكلّ جماعة مسلّحة في الجبال، أميرا ومفتيا، لا يقطع الأوّل أمرا دون أن يستشير الثاني!

كم من مفت تمّ قتله على يد المسلّحين الجدد الذين فرّوا من سجن (لامباز)، لأنه حرّم قتل المدنيين والتعدّي على أملاكهم!

هل اختلقت المخابرات الجزائريّة هذا الفرار الجماعي، لزرع رجالها في الجبال التي كانت تسيطر عليها الجماعات المسلّحة؟

هل كانت هذه العملية مفتعلة؟

الكثير في منطقة (تازولت) لا يشك في ذلك!

لكن سرعان ما دخلت الجزائر بعد الهروب الجماعي لمساجين (تازولت)، في دوّامة الإرهاب، وأصبح الشّعب، يستيقظ كلّ يوم على أخبار مجازر جماعيّة طالت الأطفال والنّساء والشّيوخ، مجازر لم تشهدها البلاد حتّى أثناء الاستعمار الفرنسي!

لا نريد منكم أن تأتونا بهم أحياء!

هذه هي الأوامر التي كانت تصل لضبّاط الصّفّ في الثكنات العسكريّة من أعلى بعد كلّ مجزرة، كانت وحدات الجيش تمشّط القرى الجبليّة والمداشر، فهرب النّاس من منازلهم، وأحرقت غابات جبليّة بأكملها بحثا عن الجماعات المسلحة!

عمّ الخوف البلاد، وأصبح لرجال الأمن صلاحيّات بدون حدود، فاستغلّ الكثير من رجال الشّرطة والدّرك مناصبهم، للاستيلاء على ممتلكات النّاس، من عقارات وأراض وسيّارات..

إلتقى يوما بشاب في بلدية (الرصفة) شرق الجزائر، أخذت منه سيارته (بيجو 505) التي أرسلها له أبوه من فرنسا، قص عليه بألم كيف إستولى ضابط في الدرك على سيارته ظلما وإجحافا، ولما ذهب ليسترجعها سجن وعذب لأكثر من أسبوعين!

في هذه البلدية لازالت لحد الساعة بقايا منازل دمرت عن آخرها من طرف رجال الأمن وشرد سكانها وسرقت ممتلكاتهم وأراضيهم!

النّاس الذين ذهبوا ضحيّة هذا الظلم، كانوا يخافون من إخبار العدالة، كلّ من تسول له نفسه بذلك أدرج ضمن قائمة الأشخاص الذين يموّلون الإرهاب!

الآلاف من الجزائريين إختطفوا ليلا من بيوتهم على يد جماعات مسلّحة مجهولة الهويّة، ورُموا في سيّارات بدون أرقام، منهم من وجد في مقابر جماعيّة، ومنهم من بقي في السّجن بضع سنين، ومنهم من لم يظهر له أثر لحدّ السّاعة!

السلطة الجزائرية إعترفت بوجود سبعة آلاف مختطف قسرا، ألقي القبض عليهم في منازلهم أو في مكان عملهم على يد أجهزة أمنية، ولا يعلم مصيرهم لحد الساعة!

المئات من الأمهات لازلن يجتمعن كل أسبوع أمام مقر حقوق الإنسان لأن فردا من عائلاتهن مفقود منذ التسعينات، أمهات يتعرضن للتعنيف والشتم في دولة الكرامة التي وعد بها (بوتفليقة)، مطلبهن الوحيد معرفة الحقيقة وطلب الإنصاف.

المادة 132 من الدستور الجزائري تنص على أن المعاهدات الدولية التي يصادق عليها رئيس الجمهورية تسموا على القانون، والمعلوم أن الجزائر صادقت على المعاهدات الدولية الأساسية لحقوق الإنسان، لكن عندما تلجأ هذه العائلات إلى المحاكم الدولية، يرسل النظام

(بلطجيته) لتخويف الأمهات والعائلات، وتعلوا أصوات أبواق النظام بالتدخل الخارجي في شؤون البلاد!

كانت مراكز الشرطة والتعذيب آخر عنوان للآلاف من المفقودين، لا يعلم ذويهم إن كانوا قد ماتوا أم لايزالون في سجون سرية، عائلات حرمت حتى من رؤية جثث أبنائها ودفنها.

لا يوجد حزن أعظم من حزن أم لم تدفن إبنها ولا تعرف قبره!

لكن الأرض ستفصح حتما عن حقيقة المقابر الجماعية في الجزائر، كما تفصح الآن عن المقابر الجماعية في جنوب إفريقيا سنوات بعد إنتهاء حكم (الأبارتايد)!

أنا لاجئ

أنا حجر في أحشائي النّار

أنا صوت شعب مُلتهِم مقهور

أنا صوت فتاة في العشرين

سُرق عشيقها من أجل أمن البلاد

أنا قرية جبليّة بين أشجار التّين والزيتونْ

أمست حطاما.. من أجل أمن البلاد

أنا نظرة عجوز مذهولة

تفتّش عن اسم ابنها

في قائمة الإرهابيّين القتلى

إبنها الحميم الوحيد

الذي قُتل من أجل أمن البلاد

أنا صمت أطفال رجعوا من المدرسة

فوجدوا الأب والأمّ في بركة من الدّماء

من أجل أمن البلاد

أنا حجر في أحشائي النار

فإن أردت نورا

فاضرب بيمينك الحجر!

العنف قضى على أحلام الجزائر في الديمقراطية والحريّة، الجماعات المسلّحة التي كوّنها أفغان الجزائر الذين عادوا إلى البلاد و(الجيا) التي إخترقتها أجهزة المخابرات جعلت من الجزائر مسرحا لمجازر لا توصف!

في 13 أفريل 1994، ألقى رجال الأمن القبض في مدينة (الوادي) جنوب الجزائر، على تسع طلبة وأستاذهم في مدرسة للتّكوين المهني، في مارس وُجدت جثثهم في حفرة خارج المدينة، الأمن أخبر عائلات القتلى أنّه تم تصفيتهم على يد جماعة مسلّحة بعد أن أُطلق سراحهم!

جريدة (ليبارتي) الناطقة بالفرنسيّة نشرت قائمة بأسماء مسلّحين استهدفوا مركّب الحديد بالحجار بولاية عنّابة، الغريب في الأمر أنّ هذه الأسماء هي أسماء الطلبة الذي قتلوا في مدينة (الوادي)!

في 22 فيفري 1995، قُتل 100 سجين في (سركاجي)، جلّهم من السجناء السياسيين!

في 28 أوت 1997، شهد حي (سيدي موسى) بالعاصمة، دخول جماعة مسلّحة على متن شاحنات قامت بمجزرة حقيقية ذهب ضحيتها 300 شخصا، والثكنة العسكرية كانت على بعد مئات الأمتار من حي (سيدي موسى)..!

في 5 سبتمبر 1997، قُتل 70 شخصا جلّهم من النّساء والأطفال، شهود عيان تحدّثوا عن مسلّحين يرتدون الزيّ العسكريّ جاؤوا على

متن شاحنات عسكريّة، المجزرة حدثت في حي (بني مسوس) وسط العديد من الثكنات العسكريّة، واحدة منها تابعة لوحدة التدخّل الخاصّة!

في 22 سبتمبر 1997، شهد حي (بن طلحة) بالعاصمة الجزائرية مقتل 400 شخصا، الغريب في الأمر هو منع رجال الشّرطة الذين قدموا لإغاثة المواطنين من الدّخول إلى الحيّ من طرف العسكر، أكثر من جريح صرّح لوسائل الاعلام أنّ طائرة (هيليكوبتر) كانت تحلّق في السّماء أثناء المجزرة!

في 30 ديسمبر 1997، قتل أكثر من 400 شخصا، جلّهم من النّساء والأطفال والشّيوخ، في قرية (الخرارية)، (ولاد سحنين) و(ولاد الطيب) في مدينة غيليزان!

في 11 جانفي 1998، في قرية (سيدي أحمد) بالقرب من دائرة (مفتاح)، جماعة مسلّحة تقتل 103 شخصا وقت الافطار!

3 جانفي 1998، هو تاريخ أبشع المجازر التي شهدتها الجزائر، مجزرة (الرّمكة) بولاية (غيليزان)، أكثر من 1200 شخصا تمّ ذبحم بدم بارد في ليلة واحدة!

الموت... السّلعة الأكثر تداولا في الجزائر طيلة عقد من الزمن!

كان الأطفال في الجزائر يجدون كلّ صباح وهم في طريقهم إلى المدرسة، رؤوسا مقطعة مرميّة في الشّوارع!

رجال الأمن من جهتهم كانوا يقومون بإستعراض جثث المسلّحين الذين قتلوهم في اشتباكات داميّة بجرّها وراء سيّارات رباعية الدّفع ويجومون في الأحياء الشعبيّة حيث يقطن المسلّحون، للتعذيب البسيكولوجي لذويهم ولتخويف الشباب الذين تسوّل لهم أنفسهم الانضمام إلى الجماعات المسلّحة!

كم من مثقف وصحفي وكاتب وطبيب قُتل من طرف جماعات مسلّحة مجهولة الهويّة؟

كثيرة هي القصص التي تداولها الشّارع الجزائريّ في التسعينات، عن جماعات مسلّحة تخرج من ثكنات عسكريّة بلحى كاذبة!

كثيرة أيضا هي الشّهادات التي أدلى بها ضبّاط سابقون فرّوا من جحيم الحرب المشتعلة وطلبوا اللّجوء السّياسيّ لدى الدّول الغربيّة، كبار الضبّاط كانوا يوزّعون الكحول والحبوب المهلوسة على الجنود قائلين لهم:

- أنتم أشرار يحميكم القانون، ثم يرسلونهم لتمشيط المداشر والقرى التي كانت تقدّم العون والمؤونة للجماعات المسلّحة في الجبال!

كم من مجازر ارتكبت على بعد أميال فقط من ثكنات عسكريّة قتل فيها المئات من الأبرياء؟

القضيّة الجزائريّة أصبحت قضيّة دوليّة بعد كلّ هذه المجازر، والعديد من الدّول الأوروبيّة طلبت من السّلطة العسكريّة في الجزائر استعمال العقل والحكمة في التعامل مع الجماعت المسلّحة!

(من يقتل من؟) هذا السّؤال أصبحت وسائل الاعلام الغربيّة تتداوله بقوّة بعد تصريحات وشهادات عدد من الضبّاط الذين فرّوا إلى الخارج، (حبيب سويدية) ضابط سابق في القوّات الخاصّة وكتابه (الحرب القذرة)- كانا القطرة التي أفاضت الكأس، فقامت المخابرات الجزائريّة بتصدير الأزمة إلى فرنسا التي شهدت عدّة أعمال إرهابيّة في العاصمة باريس، في ميترو (سان ميشال) و في العديد من الأماكن على التراب الفرنسي، طائرة للخطوط الفرنسيّة اختطفت، القطار السريع، الأسواق والمساجد، كلّ هذه الأماكن أصبحت مستهدفة فجأة من طرف جماعات إرهابيّة تحمل إمضاء المخابرات الجزائريّة التي تستعمل إسم (الجيا) بعد كلّ عمليّة!

الرّسالة كانت صريحة، إذا أرادت فرنسا أن تتوقّف هذه العمليّات الإرهابيّة على أراضيها فيجب عليها أن تغيّر من موقفها اتّجاه ما يحدث في الجزائر، وأن تصرّح بأن الصّراع هو حرب يشنّها الجيش الجزائري ضدّ الإرهاب!

الإرهاب الأعمى طال حتى رهبان (تيبحرين) في جبال المدية، الرهبان الذين كانوا يتمتعون بشعبية كبيرة لدى البسطاء من الناس، لما

يقدمونه لهم من إعانة وعلاج، حتى الجماعات المسلحة كانت تزورهم ليلا بعد كل إشتباك لإسعاف الجرحى، لذا فإن الجهة التي كانت تقف وراء عملية خطفهم وقتلهم ورمي جثثهم دون رؤوس كانت تبحث عن التأثير على الرأي العام الفرنسي قبل كل شيء!

(شارل باسكوا) الذي كان وزيرا للداخليّة آنذاك كان أوّل من فهم الدّرس، فقام بترحيل العشرات من مؤيدي الفيس إلى (بوركينا فاسو)!

كان مع المجموعة محامي الفيس (أحمد سي مزراق).

(باسكوا) صرّح بعدها بأنّ للجزائر مؤسّساتها وهي قادرة على حلّ الأزمة التي تعيشها!

في خضمّ ذلك أبرمت فرنسا عقدا لبيع طائرات هيليكوبتر بمنظار الليزر للطّيران اللّيلي مع السّلطات الجزائريّة.

(باسكوا) أصبح يقوم بالدّعاية لصالح جنرالات الانقلاب خارج الجزائر، وكان ممثّلهم دون منازع، كلّ من كان يزعج الجماعة الحاكمة ويعيش في أوروبا أصبح مطاردا من طرف الأمن الفرنسي!

(أحمد الزّاوي) يطرد من سويسرا على متن طائرة خاصّة إلى (بوركينا فاسو) بعد زيارة (باسكوا) إلى العاصمة السويسرية والدكتور (مراد دهينة) الذي كان يدرّس في إحدى الجامعات السويسرية يوقف عن العمل و تسحب منه رخصة إقامته!

وفجأة توقّفت الأعمال الإرهابيّة في فرنسا كما بدأت!

هذا البحر الذي بيننا ماء لا غير

وهذا الودّ الذي بيننا وأده عسير

في النفق المظلم المؤدّي إلى مكان موعدنا

سمعت صوت خطى تتبعنا

وفي سمّاعة الهاتف وفي جهاز الكمبيوتر

وضعوا جاسوسا يترصّد همسنا والزّفير

وفي كلّ مقهى أجلس فيه لأحتسي قهوتي

وضعوا شرطيّا في ثوب سكّير

وضعوا في كل خائن وصديق

عند الحلاّق وبائع الزّهور مسجّل صوت

والسّائح الذي تربّع في الحديقة صدفة

ليلتقط صورا للحمام

كان مكلّفا بمهمّة الاطاحة بحبّ مجنون

وذلك الذي غنّى أغنية حبّنا في الشّارع

وصفّق له الجميع..

كان عميلا يطارد عشقنا للممنوع

وذاك الإمام الورع

الذي كان يهرول في مشيته لكي لاتفوته الصلاة

كان يريد قتل قصّتنا ما بقي منها وما فات

حبيبتي..

حتّى هذا البحر الذي بيننا

لم ينزع منهم كرههم لحبّنا

وحتّى وإن لم يبق لنا سوى الحبّ عن بعد

فسوف يمنعون ذاك الودّ أن يحيا..

ولو بزرع الموت في الميترو من جديد!

اليوم وبعد كل هذا الجرم في حقّ الشّعب الجزائري، أصبح الكثير من الذين حملوا السّلاح شخصيات وطنيّة وأرباب أعمال يحميهم القانون، ذلك لأن الثّروات تبنى أثناء الحروب على رفات المساكين والغلابى!

(مدني مزراڤ) الذي كان بوّابا في المكتب الوطني (للفيس)، في حيّ (شاراس) بالعاصمة، يقدّم القهوة والمشروبات لضيوف (عبّاسي مدني)، تحوّل في التسعينات إلى أمير (الجيش الإسلامي للإنقاذ) في جبال جيجل!

(مزراڤ) صرّح أكثر من مرّة لوسائل الإعلام، أنّه قتل شبابا كانوا يؤدّون واجبهم في الخدمة الوطنيّة في التّسعينات!

هذا الشّخص أصبح اليوم رجلا ثريّا، ومن المقرّبين الذين استدعتهم السّلطة لتقديم مقترحاتهم بشأن التعديل الدّستوريّ!

(مزراڤ) اليوم، يحمل جواز سفر كتب عليه في خانة المهنة: رجل أعمال!

(مزراڤ) اليوم، ينتظر اعتماد حزبه السّياسيّ، ويجمع العشرات من أتباعه في تجمّعات تقام في أعالي الجبال دون أن يزعجهم أحد!

في حين، التظاهرات من أجل تحسين ظروف الحياة للمواطن، المسيرات والتجمّعات الرافضة لمنظومة الحكم في الجزائر، كلّها تجابه بالتعنيف والشّتم والتفريق من طرف شرطة مكافحة الشّعب!

الثّروات تبنى أثناء الحروب على رفات المساكين والغلابى!

ثبتت هذه المقولة في الجزائر كذلك، النّاس هربت من القرى والمداشر، تاركة أراضيها وأملاكها، فاستغلّت عصاباتٌ حالة الفوضى وانعدام الاستقرار لتستحوذ على ممتلكات وعقارات وشركات، وعندما كان الملاّك الأصليّون يمتنعون عن الهروب إلى المدن، يتمّ تصفيتهم وتلفيق التهمة للجماعات المسلّحة!

ولمّا خرجت الجزائر من جحيم العشريّة السوداء، خرجت إلى العلن ثروات خياليّة ملطّخة بدماء الجزائريّين!

الجدران لها آذان، والجدران في الجزائر تحكي أنّ العديد ممّن كانوا في الجبل نزلوا محمّلين بعشرات الكيلوغرامات من الذّهب!

هذا الذّهب الذي سرق من المواطنين في المجازر أو الحواجز التي كانت تقام في الطرقات أين كان المواطنون يُنهبون في وضح النّهار على يد جماعات مسلّحة مجهولة الهويّة!

كان (الفيس) يمثل الأمل لفئة كبيرة من الجزائريين، لكنه أصبح بعد ربع قرن، قرينا للجنرالات وسببا في الفتنة التي طالت الجزائر.

تدهورت الأشياء في الجزائر.. وصدق (مورفي)!

الجزائر سبتمبر 1990

لم يتمكّن من النوم ليلتها، كان قلقا يتفقّد الصّمت في الغرف الثلاثة أين ينام الجميع، أبوه الذي ينام في الغرفة التي أخذت اسم أخيه الأكبر، إخوته الذين ينامون في غرفة الأخ الذي يلي الأخ البكر، في الغرفة الكبيرة التي تتحوّل في النهار إلى (صالون) لاستقبال الضيوف تنام أمّه وخالته التي أتت لزيارة أختها وأنستها الحكايات كالعادة وقت العودة فبقيت للمبيت..

خالته كانت تخاف من الظّلام فلا تنام إلاّ والأنوار مشتعلة، لذا بقي الصالون تحت الإضاءة لسوء حظّه...

منذ أشهر وهو يحضّر لهذا السفر، أمّه التي تشمّ رائحة كلّ شيء كانت تخفي كلّ حقيبة كان يضعها جانبا ليضع فيها أمتعته، كم من مرّة وجدت حقيبة مجهولة الهويّة في الشرفة التي تطلّ على الشّارع، لكنّه يردّ عليها ككلّ مرّة بأنّها ليست له..

أصبح خبيرا في التّلاعب بأحاسيس أمّه التي لن تقبل بسفره إلى الخارج، فوضع حقيبة كاذبة في الشّرفة لتجدها وتطمئن وأخرى تحت الدرج، أين ينام الديك الرومي والأرنب والدجاجة.

السّاعة كانت تشير إلى الثانية ليلا، سيّارة الأجرة ستصل بعد دقائق، كان يجب عليه أن يخرج من الصّالون لأنّ أبواب البيت تغلق كلّها في الشتاء ولا يبقى سوى باب واحد يؤدّي إلى المطبخ ثمّ إلى فناء المنزل..

- وين رايح؟ سألته خالته

- رايح نلعب (البالو) خالتي، أرقدي ما زال الحال.

لم يكن ينتظر سؤال خالته التي تسمع كلّ شيء، خاصّة في اللّيل، منذ أن دخل بيتها سارق قبل بضع سنين أصبحت خالتي (زكية) لا تنام إلا بعين واحدة.. لذا لم يحضّر لجواب مقنع..

اليوم كلّما ترحّم على روح خالته العزيزة إبتسم متسائلا كيف أجابها بذلك الجواب السّخيف ليلتها!

وضع حقيبته في سيارة الأجرة القديمة وجلس في الأمام كي ينام قليلا.

حام صاحب الطاكسي في وسط المدينة أكثر من ساعة حتى ملأ سيارته بستة ركاب ثم توجّه نحو العاصمة

الطّريق الوطني رقم 5 من سطيف إلى العاصمة من أخطر الطرق في البلاد، كلّ عام يحصد المئات من الأرواح بسبب الإفراط في السّرعة وقدم السيّارات التي تبلغ من العمر أحيانا عمر الطّريق الذي بناه المستعمر الفرنسي..

في النّهار تستغرق الرّحلة ست ساعات، لكن الرحلة تدوم نصف هذا الوقت ليلا، سائقو السيّارات لا يأبهون بالأخطار ويسوقون وبكأنّهم في (رالي)!

شرف (السطايفي) في موته وبداه على مقود سيارته!

هكذا يقول المثل!

أغمض عينيه لينام وأصبح لا يتنفس إلا من منخر واحد لكي لا يستنشق رائحة الدخان الذي تفرزه سيجارة السّائق الذي يعرف كلّ حفرة في هذا الطريق الملعون!

كان السّائق مع سيجارته في عالم آخر لا يأبه بمن معه من ركاب ولا يعود للحياة إلا عندما تضطرّه شاحنة للسير ببطىء، فيسبّ الشّاحنة وصاحبها بعبارات لا يفهمها إلا السطايفية لأنّها من قاموس خاصّ للشتم والتجريح من الطراز العالي!

الثامنة والنصف صباحا..

مطار هواري بومدين الدولي يعجّ بالمسافرين، أخرج من جيبه مائتيْ دينار وأعطاها للسّائق، الذي وضع له حقيبته فوق الأرض وقال له: ربي أيسهّل، ثم امتطى سيارته وغاب بين سيل السيارات المتوجّه إلى وسط المدينة..

حدّق شرطيّ الحدود في جوازه كأنّه يبحث عن قاتل الرئيس الأمريكي جون كندي، ثم طلب شهادة التأجيل من الخدمة الوطنية ثم بطاقة الدّراسة الجامعية والتذكرة، تنفس الصعداء عندما ختم له الشرطيّ جوازه..

على بعد أمتار أوقفه جمركي وطلب منه ورقة التصريح البنكي بالعملة الصعبة وهل عنده مبلغ آخر لم يصرح به وهل عنده دولار أو (دوفيز) أو عملة أخرى؟

ـ لا هذا ما عندي، رد عليه!

تأخرت طائرة الخطوط الجوية المتوجهة إلى باريس ساعتين عن موعد الإقلاع، لكن لا أحد انتبه للأمر وكأن القضية عادية جدا..

بعد قرابة ساعتين حطّت الطائرة في مطار (أورلي) بباريس رفقة أمطار خفيفة.

أعطيت لنفسي إسم فنان

ورحت أصارع ويلات الزمان

بنثر أتى على كلّ عدوّ

وشعر حرّ طليق العنان

في حقيبتي حنان أمّ

وصمت أب صام عن الكلام

في حقيبتي عنوان فندق

أفل نجمه منذ زمان

صور لحبّ ثانوي

ورسائل عشق وحبّة رمّان

سألني الجمركي كم في جيبك؟

قلت مائة وعشرين دولارا أو يزيدون

قال اخلع نعليك فلم يجد إلا رائحة السّفر الطويل

كاد الجمركي أن يغشى عليه ويده تحمي أنفه وفاه

ثم أشار إلي بالدخول إلى بلد (لامارتين)

ماتت التأشيرة بعد شهر ومات الحلم الباقي

واحترق كنز جيبي إلى آخر فلس

وأغلق الفندق التعيس بابه في وجه حقيبتي

فافترشت رسائل الحبّ في الميترو، وكراسي المقاهي

وعشت إرهاب الليالي الموحشات

وشعبي على بعد بحر

يعيش إرهابا وقهرا وشتاتا

ورأيت في المنام مليون شاة وشاة

يأكلهنّ كلاب خضر سمان

ومن حولهم فئران سود يتقاتلون على الفتات

وعلى مرمى حجر، أسد جريح غاب زئيره

فصحت هل من مفسر للأحلام، أو حكيم يأتيني ببيان؟

أخذت عجوز غجرية يدي وقالت بعد هنيهة:

الشّاة براءة الأطفال

والكلاب الخضر عساكر أشرار

والفئران السود، فئران سود!

والأسد الجريح، فارس مغوار تخافه الكلاب

ولولا كثرة الفئران، لما انهزم الصنديد!

السّنتان الأوليان التي قضّاهما في باريس، مضتا كلمح البصر، سجّل للدراسة لكنّه لم يحضر أيّ درس، كان عليه أن يعمل لينام في فندق تعيس يغيّره كلّ يوم أو يومين، اشتغل عند (مومو) جزائري قصير القامة يبيع الخضر والفواكه والزّيتون والجوز واللّوز والتمر وكثير من المأكولات اليونانية كطحينة (الطاراما) ومعجون بيض السمك!

كان يبدأ نهاره على الخامسة صباحا بوضع الطاولة الكبيرة في سوق (بور روايال) تارة و(بلاص مونج) أين يقع مسجد باريس الكبير تارة أخرى.

تعلّم الحرفة بسرعة، وأصبح يتحدث إلى الزبائن بطلاقة بعد مرور أيام فقط من بدئه العمل.

أعجب به (مومو) كثيرا، لدرجة أنه كان يسمح له بالنوم في سيارته (رونو 20)، كان ذلك عربون ثقة لا يعطيه (مومو) لأيّ شخص.

كان يتقاضى 150 فرك فرنسي لليوم، 100 لغرفة في فندق وسخ في شارع وسخ تحوم فيه أجساد وسخة، والباقي للعشاء عندما يسمع كركرة معدته، في مطعم تركي زبائنه من الطلبة والمغتربين، الكل يأكل واقفا وبسرعة!

كم من مرّة لم يجد غرفة لأنه وصل متأخرا إلى الفندق، فكان يختار لنفسه طاولة في مقهى في شارع (سان دوني) الذي لاينام، شارع تعرض فيه نسوة غدر بهنّ الزمان أجسادهنّ لأشباح يحملون أجسادهم على أكتافهم، يبحثون عن قليل من الحنان شرط أن لا يتعدّى ثمنه المئة فرنك فرنسي!

كان يطلب حليبا مع قليل من القهوة ويقضي ليلته في قراءة الكتب التي يشتريها بفرنكات معدودة من سوق (لي بيس) أين يبيع الناس أشياء قديمة بأثمان بخسة!

كان عندما يغلبه النعاس يسمع نادل المقهى يصرخ في أذنه: لست في فندق هنا!

كان يختار الكتب حسب كثرة صفحاتها لتصاحبه في لياليه الطويلة، كان حجم الكتاب أهم عنده من العنوان والكاتب والقصة نفسها!

في هذه الليالي الموحشات في باريس لم يلتق بالملائكة الذين تحدّث عنهم (طه حسين) في رواياته !

في باريس أدرك أنّ له عينان جميلتان بلونين مختلفين تحبّهما النّساء!

هاتان العينان التي تمنّى وهو طفل صغير أن يفقصهما كلّما ناداه أبناء الحيّ (عينين القطّ)، فتحتا له في أوروبا قلوب الكثير من النّساء!

تحوّل بعد أشهر إلى بائع للكتب في محطّات القطار وفي كبرى الساحات الباريسية، في محطة القطار (مونبارناس)، تعرّف على (كلود) التي لم تشتر منه كتبه لكنها كتبت له رقم هاتفها على بطاقة بيضاء كُتب عليها اسم (كلود) بأحرف جميلة!

سألها:

ـ من يكون (كلود) هذا؟

ضحكت ثم قالت له:

ـ أنا.. هذا اسمي!

تلعثم قائلا أنّه كان يظن أنّ هذا الاسم لا يحمله إلا الذّكور..

علّمته كلود كلّ شيء، الحبّ والحنان والرومانسيّة، كانت جميلة وأنيقة كوردة جعلت من كلّ الفصول ربيعها!

كانت كلود تدرس القانون الدولي في لندن، وكلّما سمحت لها الفرصة كانت تطير إليه إلى باريس لتقضي معه بعض الوقت، (كلود)

أصرّت أن يعود للجامعة ويكمل دراسته، فقام بالتّسجيل في جامعة (جيسيو) ونجح في إمتحان الدخول الذي كانت تفرضه الجامعة على الطلبة الأجانب..

كانت فرحة (كلود) عندما قدّم لها رسالة الجامعة التي تخبره بنجاحه، أكبر بكثير من فرحته، نظر إليها وهي تقبّله وبكأنّه يقول لها:

ـ لقد فعلت هذا من أجلك!

باريس ليست مدينة لحب واحد!

تعرّف على الكثير من النساء، كلهنّ أحببن فيه جمال عينيه وجمال لغته!

كان يجبر نفسه على أن يكون دقيقا في لغته، لا يستعمل سوى المفردات الجميلة الكلاسيكية الأنيقة!

كان يشعر بالامتنان لأخيه الأكبر (سجين بومدين)، الذي كان يشتري له حين كان طفلا صغيرا كلّ أسبوع مجلّة (بيف) مع اللعبة البلاستيكية لكي يركّبها، هكذا تعلّم الفرنسية مع مجلّة (بيف) للأطفال ومع المغني البلجيكي (جاك برال) الذي كانت أسطواناته تغني في غرفة أخيه كلّ يوم!

الشاب الجزائري قنبلة من حنان وحبّ، قنبلة تنفجر في أوروبا، عندما يلتقي بامرأة تحبه، هذا ما خلص إليه عندما كان ينظر إلى كل هؤلاء الشباب وهم يتغيّرون في ملامحهم، في هندامهم في كلامهم، بعد بضعة أشهر فقط من العيش في باريس والعيش مع الحبّ، ويصبح الشاب الأشعث العبوس، وسيما لا تغيب الابتسامة عن محيّاه!

كان والد (كلود) كولونالا في الجيش الفرنسي، شارك في حرب الخليج الأولى ومكث هنالك قرابة السنة، وعند رجوعه أهدى ل(كلود) ساعة فخمة وقدّم لأمّها عطرها المفضل.

ردّت عليه زوجته أنّها لا تريده!

فسألها هل غيّرت عطرك؟

قالت له:

- نعم غيّرت العطر و غيّرت الرّجل الذي كنت أحبّ!

لم يقل شيئا عندما قصّت عليه (كلود) هذه القصّة، وماذا عساه أن يقول لها وهو الذي كان يستبدلها كلّما رحلت إلى لندن!

مرة، أرادت أن تكون زيارتها مفاجئة سارة فلم تخبره بسفرها، دخلت الشقة وهو يحضر نفسه للخروج، إندهش لرأيتها، رمت نفسها بين أحضانه، أحست يومها أن شي ما قد تكسر بداخلها..

قال لها:

- أنا خارج للعشاء مع أصدقائي

- سأنتظرك!

أحسّ وهو نازل من الشّقة بالحزن والأسى، لأول مرة منذ أن عرفها، يخرج للعشاء دونها!

عاد متأخرا ليلتها، وجدها تقرأ كعادتها، نظرت إليه برفق وكأنها تعتذر على زيارتها!

رنّة الهاتف أيقظته من النّوم!

- ألو؟

- أنا هنا!

(كلود).. خرجت وكلّمته من الهاتف العمومي الذي يتواجد على الرّصيف المقابل لبيته

- (كلود) ما هذا الهراء، ما الذي أخرجك في هذا الوقت؟

- سامحني، أردت فقط أن تنتبه لوجودي

- إنّها الثالثة صباحا، تعالي و نامي!

علّمته (كلود) كيف يقرأ كتابين في نفس الوقت، كانت تسمّيها القراءة الموازية، تعرّف على كتّاب كلاسيكيين ومعاصرين، معها قرأ (تريستيان وإيزوت) قصّة حبّ يحترق فيه البطلين بمشاعر لا مثيل لها، قرأ (شرق الجنّة) ل(جون شتانباك) والنّصوص المجنونة ل(بودلار) و(بلزاك)، كانت تهديه باقة من الورود كلّما أنهى كتابا، معها أصبح كائنا حبريا!

مرّة وجد ورقة عليها رقم سرّي لخزانة في محطة القطار (مونبارناس)، هرول إليها وفتحها كالطفل الصغير الذي يفتح هديته بعد طول انتظار، وجد زجاجة عطر وقميص من (كاشمير) ورسالة حبّ وكراس بغلاف من جلد بني، كتبت له على صفحته الأولى.. (ازرع على هاته الصفحات البيضاء كلماتك الجميلة!)

(كلود) حملته إلى شلاّلات (الهيمالايا) للحبّ، لم يكن ليرتقي إليها لولاها!

النوتة الوحيدة التي أفسدت هذه السنفونيّة هي تلك الحادثة في ميترو (بارباس) ذات يوم، كان يسير معها يد بيد، فسأله رجل طاعن في السنّ يحمل حقيبة مغترب قديمة:

ـ كيف أذهب إلى محطّة (ڤـار دي نور) يا ولدي؟

ـ خذ (الميترو) رقم 4 بإتجاه (بورت دورليان) وانزل في المحطّة القادمة يا سيّدي

ـ يعطيك الصّحة وليدي

ـ في لامان يا الحاج

بعد إنصراف الرّجل، نظرت إليه (كلود) وقالت له:

ـ لا تعجبني عندما تتكلّم بالعربية!

لم تكن تعلم أنّها لو ضربته بخنجر لكان الأمر أهون عليه من هذه الكلمات!

بعد سنتين، قرّرت (كلود) وقف النزيف، كم من مرّة كلّمته ليلا وسمعت صوت امرأة في بيته، كم من مرّة وجدت رسائل حبّ على مكتبته..

لكنّها الآن قرّرت وضع نقطة النهاية لقصتها معه فذهبت وتركت له مفتاح شقّته على الطاولة!

سأل عنها كل صديقاتها في ليون وباريس ولندن، كتب لها العشرات من الرّسائل، قرأ الكتب التي كانت تقرأ عندما كانت تزوره، (Belel du seigneur) جعله يفهم أنّه خسرها و لن تعود..

إلتقى بها بعد سنوات، كان يقود سيارته وسط باريس وفجأة رآها تنتظر الحافلة، لم يكن لديه شك أنّها هي، أوقف سيارته ونزل، سلّم عليها فردّت عليه السّلام بلطف وقدّمت له زوجها.. صافحه قال كلاما يليق بالمقام ثم إنصرف!

في السيارة توقفت الأرض عن الدوران لكنّ دموعه لم تتوقف!

لا نحس بقيمة الأشياء سوى عندما نضيّعها!

هكذا كانت تقول العجائز في مدينة (سطيف)

الكاسكيطة الرابعة

بوضياف يلدغ من جحر مرتين!

جنازة الرئيس (بوضياف).. إمرأة على حافة الطريق تبكي وتصرخ في وجه رئيس الحكومة (سيد أحمد غزالي):

ـ جبتوه وقتلتوه!

في 22 نوفمبر 1963، أطلق (لي هارفي أوسوالد) النار على الرئيس (جون كينيدي) في مدينة (دالاس) الأمريكية!

في التاسع والعشرين من شهر جوان 1992، أغتيل الرئيس محمد بوضياف أثناء إلقائه خطابا في قاعة المحاضرات بدار الثقافة في مدينة عنابة!

مقتل رئيس الدولة أثناء حكمه، هذا وجه التطابق الوحيد الذي ستجده بين الجزائر والولايات المتحدة!

محمد بوضياف الذي نفاه (بن بلة) و(بومدين) و(بوتفليقة) بعد الإستقلال من الجزائر كان يردد دائما :

ـ لا أمل في الجزائر لقد أخذتها أيادي غريبة عن الثورة!

(بوضياف) قضى قرابة ثلاثة عقود في منفاه بالمغرب يبيع الطوب ومواد البناء، جنرالات الانقلاب كانوا يبحثون عن شخصية تاريخية تضفي على عودة الدبّابة والكلاشينكوف إلى الشارع الجزائري قليلا من المصداقية!

لعلّ تجربة محمد بوضياف في بيع مواد البناء بعثت فيه أمل بناء الجزائر من جديد وتحقيق حلم السلطة الذي منعته جماعة (وجدة) من تحقيقة بعد أن حطّت الحرب أوزارها في **1962**.

ولكي يبرهن للعسكر الذين أتوا به أنهم أحسنوا الإختيار، صرح بملء فيه،أنه لن يتردد في وضع ثلاثة ملايين جزائري في معتقلات الصحراء إن تطلب الأمر ذلك، الإحصائيات آنذاك كانت تتحدث عن 3 مليون مناصر للجبهة الإسلامية للإنقاذ!

خالد نزار وبتشين والعماري وبلخير، جنرالات (مافيا) القهوة والزيت والدواء والمفرقعات كما سمّاهم الشّارع الجزائري، و(علي هارون) محامي الانقلابيين ومهندس محتشدات الصحراء أين سجن الآلاف من الجزائريين في منطقة رقّان التي قام فيها المستعمر الفرنسي بتجاربه النووية.. جميعهم ظنوا عبثا أنّهم سيتحكمون في هذا الشخص الذي إنقطع عن البلاد أمدا طويلا ولا يعرف عن خبايا الحكم في الجزائر إلا الشيء القليل، لكنّ الرّجل أراد أن يبرهن للشّعب الجزائري

(بوضياف) قضى قرابة ثلاثة عقود في منفاه بالمغرب يبيع الطوب ومواد البناء، جنرالات الانقلاب كانوا يبحثون عن شخصية تاريخية تضفي على عودة الدبّابة والكلاشينكوف إلى الشارع الجزائري قليلا من المصداقية!

لعلّ تجربة محمد بوضياف في بيع مواد البناء بعثت فيه أمل بناء الجزائر من جديد وتحقيق حلم السلطة الذي منعته جماعة (وجدة) من تحقيقه بعد أن حطّت الحرب أوزارها في 1962.

ولكي يبرهن للعسكر الذين أتوا به أنهم أحسنوا الإختيار، صرح بملء فيه، أنه لن يتردد في وضع ثلاثة ملايين جزائري في معتقلات الصحراء إن تطلب الأمر ذلك، الإحصائيات آنذاك كانت تتحدث عن 3 مليون مناصر للجبهة الإسلامية للإنقاذ!

خالد نزار وبتشين والعماري وبلخير، جنرالات (مافيا) القهوة والزيت والدواء والمفرقعات كما سمّاهم الشّارع الجزائري، و(علي هارون) محامي الانقلابيين ومهندس محتشدات الصحراء أين سجن الآلاف من الجزائريين في منطقة رقّان التي قام فيها المستعمر الفرنسي بتجاربه النووية.. جميعهم ظنوا عبثا أنّهم سيتحكمون في هذا الشخص الذي إنقطع عن البلاد أمدا طويلا ولا يعرف عن خبايا الحكم في الجزائر إلا الشيء القليل، لكنّ الرّجل أراد أن يبرهن للشّعب الجزائري

وللرّأي العامّ الدولي أنه ليس شبه رئيس ففتح ملفات الفساد في البلاد وبدأ في شنّ حرب ضد سياسة المحاباة والمعريفة و (الكوبيناج) فحارب رفاقه الذين أتوا به فقتلوه بدم بارد!

قصة (بومعرافي) الضّابط الذي يزعم أنّه قتل محمد بوضياف وأنّه قام بالعملية بمفرده لأنّه يريد حماية الجزائر من العدوّ الخارجي الذي يخطط لتقسيم البلاد، سيناريو صعب الهضم نوعا ما للأسباب التالية:

1) الشهادات المتطابقة من الذين كانوا في قاعة المحاضرات بدار الثقافة بمدينة (عنابة) أين أُغتيل الرئيس، الكل يجزم بوجود شخص رمى القنبلة اليدوية وشخص آخر أطلق الرّصاص على الرّئيس!

هذا ما يُسقط فرضية العملية الفردية لإغتيال الرّئيس (محمد بوضياف).

2) غياب الكثير من كبار المسؤولين في الدولة!

3) لأوّل مرّة في تاريخ البروتوكول الرّئاسي يعيّن ضابط لحراسة الرّئيس ليلة سفره، (بومعرافي) عين ضمن فرقة حراسة الرّئيس ليلة سفرية (بوضياف) إلى عنابة!

4) رئيس محكمة عنابة كان في عطلة مرضية!

5) طيار الهيليكوبتر المخصّصة للإسعاف التي كانت جاثمة على مطار عنابة لم يتلق أي خبر بإغتيال الرئيس!

6) محمد بوضياف وصل إلى المستشفى العسكري (عين النعجة) على الساعة الخامسة، الرصاص الذي أرداه قتيلا أطلق على الساعة الحادية عشرة وخمس وثلاثين دقيقة!

7) (بوضياف) كان آخر المصابين الذين نقلوا إلى المستشفى على متن سيارة إسعاف مهترئة!

8) إطلاق الرّصاص على سيارة الإسعاف التي كانت تنقل الرئيس المغتال!

9) صدور أمر بعدم إختصاص القضاء المدني الذي تكفّل بالقضية وإحالة القضية إلى القضاء العسكري!

10) لم تتم محاسبة لا إطار مدني ولا ضابط عسكري ولا أيّ ضابط من جهاز المخابرات الذي نظّم زيارة الرئيس إلى عنابة وكان مسؤولا عن أمنه!

محمد بوضياف الذي حضر حفل زفاف نجله (الطيب) بالمغرب رغم قرار الجنرال (مدين) منعه من السّفر يكون قد أمضى قرار تصفيته بنفسه، هذا ما تداولته الأوساط المطّلعة على ملفّ إغتيال رئيس بلد بحجم الجزائر، تصفية سجّلتها كاميرات التلفزة الوطنية للتاريخ!

كان (سيد أحمد غزالي) رئيسا للحكومة حينما قتل (بوضياف)..

إلتقى به في (جنيف) مرة فسأله:

ـ هل الجنرالات هم من قتلوا (بوضياف)

فرد عليه:

ـ يجب أن تعلم بأن هنالك حاكم فعلي للجزائر ليس هو الحاكم الطبيعي!

ـ من هو هذا الحاكم؟ (التوفيق)؟

ضحك صاحب ربطة العنق (الفراشة) كما يسميه الجزائريون ثم قال:

ـ الأمر أكبر من كل الجنرالات يا ولدي، أتدري لمذا منعوني من الوصول إلى الحكم؟

ـ لماذا؟

ـ لأنهم يعلمون أنني لا أسرق!

كل المسؤولين الذين إلتقى بهم خارج الجزائر، مساكين! يملكون شقق فاخرة مقابلة لبرج (إيفال) في باريس، يملكون فنادق في أكبر العواصم الأوروبية، في أرق الأحياء، لكنهم يعتبرون أنفسهم مساكين بالنسبة للجنرالات الذين إختلسوا الملايير!

كم من صفر على اليمين في المبلغ المختلس، يجب أن نضع، لكي تصبح سارقا في الجزائر؟

ضبّاط فرنسا، قرّروا تصفية (بوضياف) لأنّه أدخل أنفه (خنشوشه) كما يقول الجزائريون في ملفات فساد واختلاسات خطيرة جدا!

أسرّ إليه أحد الضباط مرة أن أحد (الجنرالات) طلب من ضابط سامي في الجيش أن يبحث له عن رجل من فرقة التدخّل السّريع التابعة للقوّات المسلّحة شرط أن يكون ضابطا مخلصا، لا يخشى الموت من أجل بلاده!

وقع الإختيار على (بومعراقي) الذي خضع لغسيل دماغ لأكثر من شهرين، خلص في نهايتها أن (بوضياف) سيبيع الجزائر لقوى أجنبية ستقسّم البلاد وتنهب ثرواتها!

خلال التمرد الجماعي لمساجين سركاجي، كان (بومعراقي) من بين المتمردين مع الكثير من مساجين الفيس، سارع الجنرال (نزار) إلى السجن ورفع سلاحه في وجه (عبد الحق لعيادة) أحد أمراء الجماعات المسلحة، قائلا له:

ـ لو يموت (بومعراقي) سأقتلك بنفسي!

لماذا يحرص الجنرال (نزار) على حياة قاتل الرئيس (بوضياف)؟

(بومعرافي) اليوم في زنزانة فردية في جناح خاص بالشخصيات الكبيرة، لا يُرفض له طلب، حتى قطته سمح لها بالعيش معه، مرة مرضت المسكينة فجيء بطبيب بيطري في منتصف الليل لفحصها!

هذه قصة (بومعراف) الذي كان الجنرالات يتحكمون فيه عن بعد، دون أن يلتقي بأحد منهم!

(بومعراف) قام بتنفيذ مخطط جهنمي نسجت خيوطه المافيا التي كانت تحكم البلاد من وراء ستار..

من وراء ستار، هكذا تم إغتيال الرئيس (محمد بوضياف)!

الكاسكيطة الخامسة

الكل يعلم أن الجيش هو من يعين الرئيس في هذه البلاد !

(خالد نزار)

من حكم الجزائر بعد إغتيال (بوضياف)؟

ـ عسكري طبعا!

(علي كافي)، قبعة عسكرية أخرى تحولت إلى ربطة عنق لتحكم الجزائر بعد إغتيال الرئيس (بوضياف).

(كافي) الذي كان عقيدا في صفوف جيش التحرير، تقلد مناصب دبلوماسية عديدة، ليصبح سفيرا لدى العديد من الدول العربية، فكان سفيرا في (لبنان) و(مصر) و(سوريا) و(تونس)، لذا اعتبره الكثيرون بأنه خارج دواليب الحكم في الجزائر لتنقله الدائم بين العواصم العربية.

في عهد الرئيس (شادلي) أنهيت مهام (كافي) الدبلوماسية، ليصبح أمينا عاما لمنظمة المجاهدين التي كانت ولا تزال محل نقد من طرف الشارع الجزائري لما يحوم حول هذه المنظمة من شكوك وضبابية في التسيير، ولكونها تلتهم كل عام ميزانية دولة إفريقية بأكملها، لكن الأمر الذي لطخ سمعة هذه المنظمة هو العدد الرهيب للمجاهدين المزيفين الذين إلتحقوا بالثورة سويعات قبل الإستقلال وهم اليوم ينعمون بمساعدات كبيرة وامتيازات واسعة تمنحها لهم الدولة، وفي نفس الوقت لا تزال ملفات أرامل الشهداء عالقة لتبقى عائلات العديد من المجاهدين الحقيقيين تعيش في الأكواخ القصديرية!

لا تحتاج حسب القانون الجزائري، سوى لشهادة مجاهدين إثنين لتصبح مجاهدا أخرج فرنسا وحرر البلاد، لهذا السبب تعالت أصوات هنا وهناك تندد بالشهادات الكاذبة و بالآلاف من المجاهدين المزيفين الذين إنظموا بالمحابات إلى منظمة المجاهدين التي كان (كافي) أمينا عاما عليها.

لم يكن للرجل أثر يذكر في الحياة السياسية للبلاد طيلة الثلاث سنوات التي قضاها على رأس البلاد، ذلك لأن الجزائر كانت تحكمها (الغرفة السوداء) كما سماها ضابط المخابرات السابق (هشام عبود) في كتابه (مافيا الجنرالات)، هذه الغرفة التي كان يمثلها الجنرال (خالد نزار) في المجلس الأعلى للدولة الذي سير شؤون البلاد بعد توقيف المسار الإنتخابي.

لم تكن للرئيس غير المنتخب أي صلاحيات تذكر، سوى الإمضاء على القرارات التي يتخذها المجلس الأعلى والتي كانت في معظمها تتضمن السياسة الأمنية لمحاربة الإرهاب والجماعات المسلحة، هذه الجماعات التي تعددت أسماؤها وتوسعت رقعتها.

في عهد (كافي)، سيطر ضباط فرنسا وعلى رأسهم (نزار) كليا على دواليب الحكم في الجزائر!

في عهد (كافي) كذالك، رهبت سرايا الموت الشعب الجزائري، فأُغتصبت حرمات المواطن بلا رادع، وانتهكت أعراض الناس ليل نهار

ودُمرت المنازل وأُحرقت الممتلكات وشُردت العائلات وذاق الشعب الويلات على يد أشرار يحميهم القانون ويتنقلون على متن سيارات بدون أرقام!

للتاريخ وللأمانة كان للرجل موقف يحسب له، كونه تصدى بقوة للعهدة الرابعة ل (بوتفليقة) وذهب إلى أبعد من ذلك حينما نعته بالسارق في تصريح ناري بثته وسائل الإعلام الجزائرية، كما دعى الشعب الجزائري إلى رفض (بوتفليقة) الذي أصبح دكتاتوريا بعد أن إغتصب الدستور، وختم تصريحه الذي بث أياما قبل وفاته رحمه الله قائلا:

- لا يمكن لسارق أن يحكم البلاد!

لكن صرخة (كافي) لم تكن كافية لإيقاف (بوتفليقة) الذي ترشح لعهدة رابعة وفاز في الإنتخابات الرئاسية، ليصبح بذلك أول رئيس في تاريخ العالم المعاصر يفوز برئاسة دولة دون أن ينشط أي حملة إنتخابية، أو يخاطب الشعب، أو يتفوه بكلمة واحدة من على كرسيه المتحرك!

الكاسكيطة السادسة

الحق فوق القوة، والأمة فوق الحكومة

(سعد زغلول)

الجنرال (اليمين زروال) حكم الجزائر عندما كانت البلاد دما ونارا، وهو أول من طرح فكرة التفاوض مع الجماعات المسلحة لإخماد نار الفتنة في البلاد، لكن (بوتفليقة) تبنى هذه الفكرة فيما بعد لتصبح برناجه الوحيد في كل حملاته الإنتخابية!

(زروال) رجل (شاوي) لا يقبل الإهانة، لذا رفض إستقبال الرئيس الفرنسي (جاك شيراك) لأنه وضع شروطا مهينة ليلتقي به، كما وقف موقفا صارما تجاه العديد من قرارات ومطالب صندوق النقد الدولي، وعندما رأى بأن ضباط فرنسا يأثرون سلبا في العديد من الملفات الأمنية دون إستشارته فضل الإستقالة ودعى لإنتخابات رئاسية مسبقة فاز بها (عبد العزيز بوتفليقة) بمباركة ضباط (بومدين)!

الرئيس (زروال) جوبه بحملة شرسة لتقزيم دوره في حكم الدولة، حملة يسير خيوطها (نزار) وأصحابه!

لم تكن هذه المرة الأولى التي يحتدم فيها الصراع بين (زروال) وضباط فرنسا، فعندما كان قائدا للقوات البرية بقيادة أركان الجيش الجزائري في عهد الرئيس (الشادلي)، لاقى مشروعه في تحديث الجيش الجزائري وإعادة هيكلته عراقيل ومصاعب من طرف الجنرال (خالد نزال) أحد أعمدة (لي داف) ضباط فرنسا الذين فروا من دفعة (لاكوست)!

(الشادلي) دفعه ولاؤه (لبومدين) الذي حمى ضباط فرنسا طيلة حكمه، إلى إرضاء (نزار) على حساب (زروال) الذي إستقال من منصبه.

عاشت الجزائر في حكم (زروال) إنزلاقا أمنيا رهيبا، لا يمكن أن يتحمل تبعاته بمفرده، لتعدد الأقطاب الحاكمة في البلاد وتنامي الإرهاب وكثرة الجماعات المسلحة المتناحرة فيما بينها سواء المخترقة أو غير المخترقة، كما أنه مستبعد أن يكون رئيس الدولة يجهل أن أجهزته الأمنية كانت تعذب المواطنين المحسوبين على الفيس والجماعات المسلحة في مراكز (بن عكنون) و(شاتوناف) بالعاصمة وفي زنزانات الثكنات العسكرية (بيني مسوس) و(دالي براهيم)، وتصفي جسديا من تشاء خارج نطاق العدالة!

سنحت للجزائر فرصة لتضميد جروحها وإخماد النار التي أتت على الأخضر واليابس في البلاد، تمثلت في عقد (روما)، الذي حضره (علي يحي عبد النور) و(عبد الحميد مهري) و (أحمد بن بلة) و (آيت أحمد) و(أنور هدام) و(محفوظ نحناح) و(أحمد بن محمد) و(عبد الله جاب الله) و(لويزة حنون)، أي كل ما تعرفه الجزائري من شخصيات وأحزاب سياسية مثلت في هذا اللقاءتحت رعاية جماعة (سانت إيجيديو) الإيطالية، هذا العقد الذي ينص على عودة (الفيس) وإطلاق صراح قادته، كما ينص على العودة إلى دستور **1989** وفتح النشاط السياسي وتكريس التعددية الحزبية في البلاد، لكن التيار الإستئصالي وعلى رأسه (رضا مالك) وضباط فرنسا ضغطوا على (زروال) الذي رفض عقد (روما) بذريعة أنه مسير من طرف أيادي خارجية. وخسرت الجزائر فرصة حوار جاد وبناء لم تتح مرة أخرى.

لكن سيكتب التاريخ أن (اليمين زروال) هو الرئيس العربي الوحيد الذي إستقال طواعية من الحكم، وعاد ليعيش ببساطة في بيته المتواضع بمسقط رأسه بمدينة (باتنة) شرق الجزائر، رافضا سيارة المرسيدس التي سلمت له ومفاتيح (الفيلا) التي وضعت تحت تصرفه في أعالي العاصمة الجزائرية!

الجــــزائــــر 2001

عشر سنوات مرّت على تلك الليلة التي تسلّل فيها خارج البيت وركب في سيارة الأجرة التي قادته إلى مطار الجزائر.

كثيرة هي المرّات التي أحسّ فيها بالحنين إلى والديه وإخوته، لكنّه كان يعيش في باريس بسرعة الضوء لا يتحكّم فيه الزمان والمكان، كان يعيش للحبّ ومن أجل الحبّ، كل شيء غير ذلك كان بالنسبة له مضيعة للوقت!

كلّمه أخوه من جنيف وطلب منه إن كان يريد السفر لأداء مناسك العمرة مع أمّهما، كانت فكرة رائعة، كم من مرّة تمنى السفر مع أمه إلى الحج!

في الغد كلّم أخاه واعتذر منه، لن يستطيع مرافقتهما، لقدد قرّر السفر إلى الجزائر لقضاء عيد الفطر هناك!

لماذا هذا القرار المفاجئ؟ حتى هو لا يدري، كان لديه إحساس غريب بأنّه يجب عليه أن يزور أباه!

كان (عمي الحوّاس) رجلا متواضعا عنده دكّان صغير يبيع فيه الكتب القديمة!

في الطائرة تذكّر أباه وهو يمسك بيده ويأخذه في أوّل يوم إلى المدرسة الابتدائية، كان يمسح دموعه ويقول له:

- لا تخف ستعجبك المدرسة!

تذكر تلك الحادثة الغريبة، حين زار معلمه أباه في دكانه وقال له :

- إبنك تلميذ رائع سيكون له مستقبل كبير!

تذكر صوت أخته المشاكسة وهي تحكي له هذه القصّة في الهاتف عندما أصبح اسمه على كل لسان في المدينة وأصبح برنامجه الأسبوعي يأرّق كبار المسؤولين في البلاد!

تذكّر أيام صباه عندما كان يزور أباه في الدكّان، ويشرب زجاجة (البيبسي) التي كان يشتريها له من المقهى المجاور، تذكّر رائحة أباه، مزيج من المسك ورائحة جميلة أخرى لم يشمها في شخص غيره، لعلّها رائحة الصدق والاطمئنان؟

كم من مرّة إلتقى بطلبة من مدينته كانوا يدرسون في باريس أو لندن، كانوا يسألونه إن كان إبن ذلك الشيخ الذي كان دائما يقرأ في دكّانه؟

كان يجيب بفخر:

- نعم!

الشيخ الذي كان دائما يقرأ في مكتبته الصغيرة، هذا هو الكنز الوحيد الذي ورثه من أبيه!

وصل إلى البيت ليلة آخر جمعة من رمضان لذلك العام، عمّ الصراخ البيت، عمي (جا)، عمي (جا)، سلّم على الجميع، ثم إحتضن أخته التي قبّلته بعنف في فناء البيت، ثم ركضت لتخبر أباه..

أخبرته أخته بعد أيام أن أباه ردّ عليها قائلا:

- لقد جاء ليدفنني!

توفي والده في اليوم الموالي، جلس معه على السرير الذي كانا ينامان فيه وهو طفل صغير، أمسك بيد أبيه، رفع له أصبع الشهادة وأقر بالشهادتين في مكانه، همد جسد أبيه الذي أصبح باردا كالثلج، صرخ في وجه أخته أن تكف عن الصراخ والعويل، قرأ قليلا من القرآن ثم قبّل وجه أبيه طويلا وذهب إلى الصالون وأخذ سمّاعة الهاتف وأخبر الجميع بأنّ (عمي الحواس) قد مات!

أصعب شيء كان إخبار أمه التي كانت في العمرة مع أخيه!

أسبوع بعدها، أسرّ إليه أخوه أنّه عندما سمع بالخبر بحث عن أمهما في كل مكان بمكة فلم يجدها، فقرّر في آخر النهار البحث عنها في الحرم المكي، فوجدها متشبثة بستار الكعبة تبكي!

ـ (ما) وين كنتي بحثت عنك في كل مكان-؟

ـ واش (الحوّاس) مات؟ ردت عليه

أخذها في حضنه وبكيا طويلا في أطهر بقعة على وجه الأرض، بكيا لموت أطهر رجل عرفه في حياته!

كيف علمت أمه بالخبر؟

لعلّها لغة لاسلك القلوب.. (ويفي) المودة!

قطار الجبال يقودني كل ليلة إلى بستان عال

فيه خضرة وأمان وماء جار

وأحنّ إلى رائحة أمّي وقطعة كسرة معجونة بزيت الزيتون وقدر حساء

أحنّ إلى أبي راجعا من سوق الخميس البعيد

وإلى يديه الزّهيفتين تحملان قفة يطلّ من أعلاها رأس ديك رومي

وفي آخر النهار، يجلس أبي ليحتسي قهوته بالقرب من قطنا النائم تحت فرن الدار

أحنّ إلى تلك الليالي المظلمات

أين ينقطع فجأة تيار الكهرباء

هنالك يتحوّل أبي إلى ممثّل رائع

يحملنا بخياله تارة إلى قصور وحدائق فيها عيون وأشجار رمّان

وتارة إلى حروب أدبية فرسانها مدح وهجاء وصولة شجعان

إلى طرائف تبكينا ضحكا، أبطالها رفاق شبابه وهم يتلاعبون ببائع الكتّان

وأغمض عيني، لأبحر في ذاكرتي بحثا عن ذلك الدكّان

قضى فيه أبي ثلاثين عاما، يبيع كتبا مرقّعة أو يقرأ تفسير المعاني

وفي المولد يأتينا بشموع ملونة، وبخور وعطر أقحوان

ويوقظني مراقب القطار، وأعطيه تذكرتي بعد ثوان

ويدعني بشكر دبلوماسي، وأبغضه لأنه أعادني إلى زماني

مات أبي في الشتاء، وأصبح دكّانه تبغا وكبريتا وأشرطة للأغاني

وكلما اتخذتني بنيتي حصانا لها وأنا ساجد للرحمان

تذكّرت ذلك الشيخ البسيط الذي لازم صوته آذاني..

مات أبي في الشتاء، وفجأة إنقطع تيار الكهرباء!

حين الحب يضربنا فلا (لماذا) ولا (كيف) !

نـزار قباني

كانت طائرة الخطوط الجوية البريطانية جاثمة على أرضية مطار هيثرو، رهيبة متغطرسة، تبدو أمامها طائرات (إيزي جات) صغيرة وتافهة!

كان يمشي بخطى ثابتة إلى مدخل الطائرة، بعد أن مرّ بحاجز التفتيش بالسكانير الذي لا يتسامح حتى مع قارورات العطر.

ـ رحلة جميلة، قالت له المضيّفة

ـ شكرا! رد عليها

كان يفكّر في انتهاء الرّحلة قبل بدايتها، هل ستنتظره في المطار؟ هل سيذهب وحيدا إلى الفندق وينتظرها على جمر هناك؟

جلس في مقعده المرقّم، ربط حزام النجدة، تمتم بين شفتيه دعاء السفر ونام..

امتنع عن النوم ليلة سفره إليها، كان يريد أن لا يعيش من هذا السفر سوى لحظة اللقاء، فتح عينيه على وجه المضيّفة التي ابتسمت وطلبت منه إذا كان يريد أن يأخذ وجبة الغذاء؟

نظر إلى الطبق الذي عند السيدة المسافرة بجانبه..

دجاج و رز و سلاطة وكعك!

حتى أطباق الخطوط الجوية الجزائرية تسافر معه إلى أمريكا!

قال لها: لا شكرا، ثم أسقط رأسه من جديد على المخدة التي تحمل شعار بريتيش آروايز.

رائحة القهوة والشاي ملأت مقصورة الطائرة، أخفى وجهه تحت سرد من الكاشمير لا يفارقه في أسفاره.

كان قد أخذ عهدا على نفسه ألاّ يسافر إلى أمريكا، لعدّة أسباب من بينها سجن (غوانتانامو) الرهيب الذي جعلته السلطات الأمريكية عنوانا لمحاربتها للإرهاب!

قصص الآلاف من العائلات الباكستانية والأفغانية التي رحّلت بالقوّة من أمريكا إلى بلدانها الأصلية لأنّ فردا منها مشتبه بتعاطفه مع القاعدة جعلته لا يؤمن بديمقراطية هذا البلد المخادع الذي جعل من نفسة شرطيا على العالم يتحكّم في حركة مروره كيفما شاء!

لكنّ الأمور تغيّرت، غيّرها صوت امرأة جميلة، جعلته يمزّق صور النّساء وينسى قصص الحب التي عاشها من قبل!

ـ هك؟ هل أعجبك هك؟

هاء وكاف، كان يموت ويحيا كلّما سمع هذين الحرفين ينطّان من فمها!

مرحبا بكم في مطار ميامي!

صوت مضيّفة الطائرة أخرجه من أفكاره التي كانت تتزاحم كما يتزاحم الركّاب الآن للنزول، وقف ليأخذ حقيبته فوجد شابّا يحدّق فيه مبتسما:

- واش خو راك داير فيهم حالة (فالجرنان)، نقدك رصاص وليس كلمات، شاهدت كل حلقات برنامجك على التلفزوين وأعيد مشاهدتها على (اليوتوب) أنت (فور) خويا نُستعرف بيك!

- حتّى هنا في ميامي يا جدك ولحقتني! رد عليه ضاحكا

تعوّد أن يوقفه النّاس في الشّارع لأخذ صورة معه أو للاستفسار عن غيابه عن الشاشة، هل هدّده النظام؟ هل هدّد عائلته في الجزائر؟ هل أُوقفته إدارة القناة؟ كان يردّ بابتسامة أنّ كلّ شيء بقدر!

كان برنامجه الأسبوعي منتظرا من طرف الجميع، الشباب الذين عزفوا عن السياسة أصبحوا يلتقون في المقاهي كل جمعة لمتابعته على الشاشة المرصعة على الجدار، الطلبة في الإقامات الجامعية، الصحفيون والكتّاب والسياسيون، حتى العجائز والأطفال، كلٌّ كان ينتظر (واش قالوا فالجرنان) بشغف!

ذاع صيت هذا البرنامج السياسي الساخر لدرجة أنه أصبح موضوع مناقشة لرسالة (الماجستير) في جامعة (الحاج لخضر) بولاية (باتنة) وجامعة (بوضياف) بولاية (المسيلة).

برنامجك التلفزيوني أقوى من أي حزب سياسي يا سي محمد.. هكذا قال له محامي مشهور يعارض النظام من لندن منذ أكثر من عشرين عاما!

كان ينتقد في برنامجه الجريء، بكلمات بسيطة يفهمها الجميع، كل المسؤولين في البلاد، كان يسمي كلّ شخص باسمه، حتّى رئيس الجمهورية كان يأخذ قسطه من الإهانة.

نعم كان يريد إهانة هؤلاء المسؤولين الذين أهانو الشعب منذ الإستقلال!

في كل أسبوع كان يأتي بملف ساخن وبمعلومات تثير غضب الشارع، معلومات عن اختلاسات المال العامّ، وتلاعبات بأملاك الدّولة من طرف المسؤولين، كلّ الوزراء كانوا على المحكّ في برنامجه الأسبوعي!

هل يمكنك الدخول إلى الجزائر؟ كان هذا السؤال على كلّ الشفاه، وسمعه من كلّ شخص صادفه في الطريق، حتى هو لم يكُ يعلم إن كان يستطيع العودة إلى الجزائر أم لا.. فأنّى له أن يجيب؟

لقد فتح على نفسه عدّة جبهات، فأصبح عدوّا للنظام وعدوّا للسلفيين وعدوّا للمخابرات!

أنت وحيد كذلك (السنايبر) القنّاص الذي يطلق الرصاص على كلّ من يمرّ في الطريق !

هكذا وصفته كاتبة مشهورة كلّمته خفية في (السكايب) وكأنّها تكلّم عدوّا يبحث عنه العالم بأسره، قالت له قبل أن تقطع المكالمة :

ـ ربي يسترك يا الفحل نتاع الجزاير !

الكلّ يتكلّم بالإسبانية في مطار ميامي، الشرطة، الجمارك، الموظفون.. الأمر غريب جدا!

- هل هذه أول مرة تزور فيها الولايات المتحدة؟

- نعم

- كم ستمكث هنا؟

- ثلاثة أيام

- ثلاثة أيام فقط؟ كلّ هذا السّفر من أجل ثلاثة أيام؟

- عملي لا يسمح لي بالمكوث أطول من هذا سيدي، تمنيت أن أبقى أكثر من هذا لكن..

- حسنٌ تفضل

- شكرا مع السلامة

- مع السلامة

كان هذا أوّل عهده بالولايات المتحدة، القصص التي تذكر أنّ الجمارك يمكنهم أن يجرّدوك من كل ملابسك كما فعلوا بوزير خارجيتنا (مراد مدلسي) ذات مرّة تبدو سريالية قليلا!

- هل تبحث عن طاكسي؟ سألته سيدة من وراء زجاج الكشك الذي كتب عليه (ليموزين)

ـ نعم سيدتي لكنني لا أريد سيارة فخمة أريد سيارة أجرة عادية

ـ لا تخف عزيزي، ثم صرخت بملء فيها:

ـ (جون) عندك زبون إلى وسط المدينة

ركب مع جون ومدّ له ورقة مكتوب عليها عنوان الفندق بعد أن سلّم عليه!

جون سائق في غاية الرّاحة لا يقلق أبدا، يترك الكلّ يسبقه يمنة ويسرة، سيارات وشاحنات!

لعلّه يريد أن يريني كلّ المدينة قال في قرارة نفسه بعد أن بدأ الغضب يستيقظ في دمه (السطايفي)!

وصل إلى الفندق بعد مدّة بدت كأنها الليل كلّه، أعطى للسائق 85 دولار دون أن يشكره ثم دخل إلى الفندق..

في الغرفة إستلقى على السرير، فتح هاتفه وكتب لها رسالة قصيرة.. (أنا هنا!)

فتح عينيه و نظر إلى الساعة، لقد نام أكثر من ساعتين، توجّه إلى الحمام، استحمّ و بحث في هاتفه النقّال عن برنامج الصلاة ليجد القبلة، صلّى ما فاتته من صلاة جمع تأخير وتقصير ثم نام.

ـ سأكون عندك بعد ساعة.. اشتقت إليك!

طار قلبه إليها قبل أن تنهي المكالمة..

بعد ثلاث ساعات من الانتظار كتب إليها بأنّه لم يأكل شيئا منذ فطور صباح البارحة لذا سيذهب إلى المركز التجاري المقابل للفندق..

كانت تعمل في مركز يتكفل بالأطفال الذين يعانون من خلل في الكروموزوم 21، أطفال (التريزوميا)، كانت تقول دائما أن هؤلاء الأطفال يمكنهم العيش بصورة عادية إذا وجدوا الرعاية الكافية وقليلا من الصبر، لكن في الجزائر هذه الفئة من الأطفال، تعيش الجحيم دون أي أمل في التكفل بهم!

كانت تحلم بفتح مركز يحتضنهم في الجزائر!

كلّمته في الحال متأسفة على التأخر، إجتماع مع المدير دام ساعتين، لقد اقتنت حاجات للبيت، سمعها تسرد عليه أسباب عديدة لم يلق لها بالا..

ـ حبيبي سأكون عندك بعد ساعة!

ردّ عليها:

ـ خذي وقتك لا تتحيّري!

أخذت وقتها !

في اليوم الموالي، كلّمته وهو في غرفته التي لم يطق مغادرتها

ـ أنا في بهو الفندق، انزل من فضلك!

وجدها مختبئة وراء نظارات شمسية، سلّما على بعضهما كأنّهما اعتادا اللقاء، أهدته باقة من الزهور!

ـ هل أنت جائع؟

لم تنتظر إجابته.

ـ هيّا بنا سآخذك إلى مطعم ممتاز، يقدّم سمكا لذيذا!

في سيّارتها، تحسّس ريحها، نظر إلى يديها وحذاءها، ثم غابت عيناه في المدينة التي لا يريد زيارتها.

أثناء الأكل أخبرته أنّ مكان عملها ليس بعيدا من هنا ..

رد عليها:

ـ سأعود غدا إلى لندن

قالت له:

ـ أعلم ذلك!

كان المطعم محاذيا لمتجر كبير، يزوره الناس من كل أنحاء أمريكا لكثرة المحلات والعروض المغرية لكبرى الماركات العالمية.

ـ أريد أن أشرب قهوة عند (ستارباك)

ـ أنت تعلم أنني لا أشرب القهوة، لا أحب سوى الهوت شكلات..

كيف له أن يعلم ذلك؟ قال في نفسه

ثم سمعها تقول له:

ـ اشرب قهوتك في راحتك حبيبي سأذهب لأخذ ملفات من مكتبي ثم أعود، هكذا يمكنك التجول قليلا في المتجر

ـ حسنا ، رد عليها!

احتسى (الريستراتو) القهوة التي يفضلها الإيطاليون بسرعة، ثم سار في أروقة المركز التجاري الكبير، لا يبحث عن شيء، لا تهمّه التخفيضات على واجهة المحلات، لا تستهويه هذه العادة الجديدة للإنسان المعاصر، إقتناء كل ما هو جديد حتى وإن كان القديم لازال صالحا ولمدة طويلة!

هذه العادة التي يسمّيها الغرب (الشوبينف) كان يراها حالة هيستيريا يحاول فيها الناس الهروب عن مشاكلهم اليومية أو ملء الفراغ الذي عمّ حياتهم.

الكثير من الأطباء النفسانيين يقرّون أنّ (الشوبينف) أصبح مرضا خطيرا على الكثير من الناس في الغرب!

كلّمته وهو يستريح على أريكة في معرض (لاندروفر) للسيارات الرباعية الدفع، وقالت له:

ـ سامحني حبيبي لن أستطيع العودة للمركز التجاري أبي رجع من العمل باكرا اليوم على غير عادته ويجب أن أعود للبيت حالا!

لم يتفاجئ، ليس هذا الخبر سوى تكملة لسلسلة المواعيد التي لم يكتب لها القدر أن تتحقّق!

كلّمته في اليوم الموالي واعتذرت عمّا حدث البارحة، قالت له لمّا سمعت صمته الطويل:

ـ حبيبي قلت لك قبل مجيئك أنني لا أستطيع أن أراك سوى ساعة أو ساعتين في اليوم لا أكثر

ـ لا ألومك، الله كريم.. رد عليها

ـ خليني نجي نديك للمطار

ـ لا تتعبي نفسك سآخذ طاكسي

ـ لا من فضلك أريد أن أراك قبل أن تسافر

ـ حسنٌ أنا في إنتظارك!

وصلت، سلّمت، طلب منها أن يسوق، قبلته، ركبا ثم توجّها نحو المطار لا يعكر حزن صمتهما سوى صوت (الجيبيياس)..

التكنولوجيا ستخلق مجتمعا متوحّشا يعيش فيه الإنسان بمفرده!

كلما إستعان بجهاز (الجيبياس) ليصل إلى وجهة ما، تذكر ضاحكا قصة ذلك الصديق الذي هددته زوجته بالطلاق إن لم ينزع هذا الجهاز الملعون من سيارته، لم تكن المسكينة ضد التطور والتكنولوجيا لأنها كانت إمرأة متقفة، لكنها غارت من صوت المرأة الجميل المسجل في الجهاز والذي يمكنه إغراء زوجها!

كان الإنسان عندما يمتطي دابّته يستعين بالنّجوم في اللّيل وفي النّهار يسأل النّاس عن الطريق، وكثيرا ما كان النّاس يستضيفون عابر السبيل ويتعارفون على بعضهم بعد السؤال والجواب..

اليوم كم من قصّة حبّ لم تر النّور لأنّ رجلا عوض أن يسأل امرأة تمر أمامه وقد أرسلها له القدر لتكون أمّا لأولاده، فضّل سؤال السيّد (ڤوڤل) وانصرف!

كانا صامتين طيلة الطريق

مسكت بذراعه كأنّها تتمسّك ببالون سيمنعها من الغرق..

لم ينظر إليها لكنّه أحسّ بأنّ دموعها على الأبواب!

وصلا إلى المطار، شكرها، سلّم عليها، أخذ حقيبته وانصرف، تاركا وراءه امرأة لم يلتق بها!

ـ تذكرتك غير صالحة سيّدي، أنت حجزت في العشرين من الشهر القادم!

ـ هذا مستحيل سيّدي ! لابد أن يكون خطأ ما في حاسوبكم.. أنا متأكد أنّني اشتريت تذكرة ذهاب وإياب لأمكث هنا ثلاثة أيام فقط!

ـ أنا آسف سيّدي لا يمكنك السّفر بهذه التذكرة!

ـ هل يمكنكم تغيير تاريخ الرّجوع من فضلك

ـ نعم لكنّ هذا سيكلّفك غاليا

ـ لا ضير سأدفع ما تريد

ـ 1800 دولار سيدي إذا أردت السفر اليوم!

كان هذا الثمن يضاهي نصف أجرته الشهرية!

كان يريد أن يطير إليها عبر الحاسوب، لذا أخطأ في تاريخ العودة عندما اشترى التذكرة عبر (الإنترنت)

سافر في نفس اليوم !

في الطائرة انهمك في تحضير برنامجه الأسبوعي، الرّئيس في الجزائر سافر مرّة أخرى على جناح السرعة إلى فرنسا للعلاج، ورئيس الحكومة وترسانة الوزراء تجول شرقا وغربا للتطبيل لعهدة رابعة!

أصبح من الصعب عليه أن ينتقد هذا الشّيخ المقعد المسكين الذي لا يقدر على الحركة ولا حتى على الكلام، المعلومات التي تصله الآن من البلاد ومن المقربين من النظام (الذين أصبحوا من هواة برنامجه) ويمدّونه بكلّ جديد لأنهم يجدون سعادة في إيصال هذه المعلومات الخطيرة إلى الشعب عن طريق برنامجه السياسي الساخر.

لم يلق النظام بالا لهذا البرنامج في البداية، لكنّ الأمر أصبح من الخطورة بما كان، فبعد كل صلاة في المساجد، في المقاهي والحانات، كلام هذا القنّاص المجنون الذي يطلق النار على الجميع، هو حديث الجميع!

المعلومات تقول بأنّ أخ الرئيس لم يستسلم للأمر الواقع، رغم أن أخت الرئيس ترفض جملة وتفصيلا فكرة ترشح أخيها الرّئيس لعهدة رابعة.

مشاذّات وتلاسن وقعا بين الأخ وأخته!

كانت الأخت ترى بأن هذا الأمر سوف يكرّه الناس في أخيها الذي بنى مجده على سياسة الوئام والمصالحة، وأخرج البلاد من عشرية الإرهاب، كانت تقول أن عهدة رابعة سوف تشوه إسمه لأن مقاليد الحكم بالنسبة لها لم تعد بيده!

ـ خليه يموت (ترنكيل) في بيته!

كانت تصرخ في وجه (السعيد)

ـ أخي لن يموت إلا على كرسي الحكم!

هكذا كان يردّ عليها الأخ الذي أصبح الآمر الناهي في البلاد!

السيجار

الديكتاتور كمن ركب على ظهر نمر يقوده بالضرب،
لا يستطيع أن يترجل منه أبدا !

(ونستون تشرشل)

القلب لا يتّسع لحبّين اثنين، حتى الرّسول الكريم محمّد (صلّى الله عليه وسلّم)، لمّا أحب خديجة لم يقبل بغيرها شريكة للحياة حتى وهي طاعنة في السنّ!

محمّد الرّجل، أحبّ خديجة المرأة حتّى ماتت وهي في الخامسة والسبعين، رغم أن عادات المجتمع القرشي يسمح بتعدد الزوجات حينها!

ولمّا ماتت خديجة، تزوّج الرّسول الكريم بعدة نساء، لكنّ أمّنا (عائشة) كانت حبيبة قلبه الوحيدة حتّى توفّي بين أحضانها!

(بوتفليقة) لم يحد عن هذه القاعدة، فقلبه لم يتسع لحبّين اثنين، السلطة ملأت قلبه ولم تترك مكانا لغيرها!

لم يعرف له أصدقاؤه في الثانوية في مدينة (وجدة) المغربية مسقط رأسه قصة حبّ، ولم يعرف له رفاق دربه السياسي امرأة، لم يكن له رفاقا في النضال، لأنّ (عبد القادر المالي) لم يطلق رصاصة واحدة على جيش المستعمر الفرنسي!

الشّابّ الجزائريّ الذي يهاجر إلى أوروبا قادر على أن يتزوّج بشجرة أوروبية للحصول على رخصة إقامة، لا تتعجّب إذا رأيت شابّا يمسك بيد إمرأة طاعنة في السنّ، شباب (بارباس) الحي الشعبي في باريس أين يجتمع (الحراقة) لبيع السّجائر وعلب التبغ (الشمّة)، اعتادوا الاستهزاء من هذا الزّوج الغريب، كلّما مرّ في الحي:

ـ يا (خو) عندك (كواغطك) رايحين يطيحوا!

إستعارة بأن صاحبته التي تمشي بصعوبة لكبر سنّها سوف تسقط، وتسقط أوراق إقامته معها!

الشباب الأيسر حالا، يقومون بزواج (أبيض)، يبحثون عن أوروبية دون عمل، يقترحون عليها عشرين أو ثلاثين ألف أورو لتتزوّج بهم حتى يتحصّلوا على إقامة دائمة ثم يطلّقونها!

(بوتفليقة) ليستوفي شروط الرّئاسة التي ينصّ عليها الدستور الجزائري، قام في شهر أوت سنة **1999** بزواج أبيض، عقد بشراكة (رابح ـ رابح)، مع (أمال تريكي) إبنة إطار سامي في وزارة الخارجية الجزائرية (يحي تريكي)!

(بوتفليقة) لم يمض يوما واحدا رفقة هذه الزّوجة المفيدة..

(أمال تريكي) تعيش اليوم بين القاهرة وباريس، تحت رعاية السّفارة الجزائريّة التي تسهر على سعادتها!

ـ هل تريدون أن ترموا بي في قفص الأسود، كما كانت تفعل روما من قبل؟

كم هم هؤلاء الجنرالات الذين يريدون أكلي؟ عشرة؟ إثنى عشر؟

هكذا كان (بوتفليقة) الذي كان يحظى بالإجماع كما يدّعي، يكلّم الشّعب، قلبه لا يتّسع لحبّ هذا الشّعب المسكين، قلبه لا يتّسع لدموع تلك الأمّ التي كانت تصرخ بأعلى صوتها أثناء خطبة من خطبه التي كانت تدوم لساعات :

ـ أين إبني الذي إختطفه رجال الأمن ليلا من بيته؟

رد عليها (بوتفليقة) قائلا :

ـ إجلسي مكانك، إبنك ليس في جيبي!

كان هذا الردّ خالٍ من كلّ إنسانية تعارف عليها البشر، (بوتفليقة) دبّابة قتال سياسيّة لا ترحم الضعفاء، للرّجل هدف واحد، الموت على كرسيّ الحكم ليخلّده التّاريخ!

في حكم (بوتفليقة) أدرجت مادّة في القانون، تعاقب من يشتم الرّئيس بالحبس لمدة 6 أشهر، وبغرامة مالية قدرها خمسون ألف دينار جزائري!

لا توجد مادّة في القانون الجزائري، تدين الرّئيس الذي يشتم شعبه!

مرّة شاءت الصدف أن ألتقي ب (حسين آيت أحمد) الزّعيم القبائلي، الذي حمل السلاح ضد (بن بلة) في **1963**، وحُكم عليه بالإعدام سنة **1964**، لكنه هرب من سجن (الحراش) في **1966** وفر إلى منفاه في (سويسرا).

(آيت أحمد) الذي يعرف (بوتفليقة) معرفة المسجون بجلاّده، كان يتفسّح على ضفاف نهر (الليمان) بمدينة (لوزان) السويسرية، من هذه المدينة كان (دا الحو) كما يسمّيه مؤيّدوه يسيّر ب (الفاكس) حزب القوى الإشتراكية التاريخي !

بعد أن سلم عليه، سأله لماذا تتركون هذه العصابة من ضبّاط فرنسا ترمي بالجزائر إلى الهاوية؟

رد عليه قائلا:

ـ أنتم انتخبتم رجلا مجنونا، هذه ثمرة خياراتكم !

(أنتم)؟؟؟

لماذا يخاطبنا كلّ هؤلاء الذين حملوا السّلاح لتحريرنا من المستعمر الفرنسي بهذه اللّهجة؟

لماذا يوبّخوننا في كلّ مناسبة وكأنّنا لسنا أهلا للحريّة والتحضّر؟

ـ إذا لم ينتخبني الشّعب بأغلبية ساحقة، فسأعود إلى بيتي في سويسرا، وأخلص إلى أنّ هذا الشّعب راض على وضعيته التعيسة، وأنا لست مجبرا على أن أفرض السّعادة على شعب لا يستحقّها!

هذا ما صرّح به (بوتفليقة) لصحفية فرنسية قبيل فوزه بعهدته الأولى.

الرّئيس الجزائري لم يلتق ولا مرّة بصحفي جزائري منذ أن اعتلى سدّة الحكم!

(شفيق مصباح) ضابط المخابرات الأسبق الذي نشأ في حضن جزائر الجنرالات، أنهى مساره المهني كمستشار لدى الرّئاسة، أوضح في كتابه (الإشكالية الجزائرية) أنّ الدّكتور (طالب الإبراهيمي) هو الفائز الشرعي لانتخابات 1999، وأنّ المخابرات الجزائريّة هي التي كانت وراء تزوير النّتائج لصالح (بوتفليقة) بمباركة الجنرال (توفيق)!

كلّ بطولات (بوتفليقة) والتي منحته اسمه الثوري (المالي)، نسبة لهذا البلد الإفريقي الفقير، الذي يحد الجزائر من جنوبها الغربي، تقتصر على سفرية أبعده بها (بومدين) عن خصومه في جيش الحدود، خصوم كانوا متذمّرين من حياة المجون التي كان يهواها هذا الشّاب الوسيم الذي يحميه الكولونال (بومدين)!

(بومدين) كلّف (بوتفليقة) بمهمّة الذهاب إلى (مالي) لشراء الأسلحة من المهربين (التوارق) والمجيء بها على متن سيارتين رباعية الدفع (جيب)، (بوتفليقة) رجع بسيارة واحدة بعد ستة أشهر، بعد أن بدد نصف الأموال التي أخذها في السهر والمجون في الفنادق و(الكازينوهات) !

بعد الاستقلال، كانت برقيات أجهزة المخابرات الفرنسيّة بأمر من الرّئيس الفرنسي (فاليري جيسكار دستان) تصل إلى الرّئيس (بومدين) تخبره بأنّ وزيره الشّاب (بوتفليقة) لم يخرج من فندقه منذ أيّام، وهو يمكث مع ثلّة من بائعات الهوى، وفرنسا لا تريد تحمّل التبعات الأمنية إذا حدث مكروه للسيّد الوزير لأنّه ليس في زيارة رسميّة !

كان (بومدين) يردّ دائما بالقول بأنّ (عبد العزيز) شابّ يجب أن يتمتّع بشبابه!

هذا الأسبوع لن يتحدث عن الرّئيس المريض، ولا عن علاجه في فرنسا، سيأخذ الناس إلى ملعب آخر، ملعب تُجرى فيه مقابلة سرية بين أرباب الأعمال الجدد الذين بنوا ثروتهم منذ عودة الرئيس من المنفى الذي إختاره لنفسه في سويسرا ودول الخليج أين كان يعيش حياة ترف كمستشار إقتصادي لإمارة بترولية!

كان (بوتفليقة) يعلم أنّ المال هو العمود الفقري لحكمه، لذا خلق من العدم ثروات ضخمة وضع على رأسها أشخاصا كانت حالتهم المادية جدّ متواضعة وجعل منهم (مليار دارات) في وقت وجيز!

سيكونون حماة العائلة الحاكمة، وسيعينونه على البقاء في الحكم، سيستعملهم لشراء الذمم وشراء كلّ الأقلام وكلّ المسؤولين في كلّ مكان..

كان يردّد على مسامعهم: كلّ شخص له ثمن!

لكنّ السّنن الكونيّة أكبر من أيّ رئيس!

الرّجل الوسيم الذي كان يحمل كأس الويسكي بيد وسيجار (الهافانا) باليد الأخرى !

رجل المؤامرات الذي كان ينسج كلّ خيوط السّياسة الخارجيّة للبلاد، الرّجل الذي نجح في تحرير سبعين رهينة من بينهم أحد عشر وزيرا لمنظمة الدول المصدّرة للبترول (الأوبك)، أُختطفوا في (فيينا) على يد الإرهابي إيليتش راميراز سانشاس (كارلوس)، (بوتفليقة) سلم ل (كارلوس) حقيبة مملوة بملايين الدولارات وحرر الرهائن، الرجلان إلتقيا بعد ذلك في سوريا وأكلا المشوي مع بعض!

الرّجل الذي كان أصغر وزير في العالم وعمره لا يتجاوز خمسة وعشرين سنة، رجل الانقلاب على بن بلة والذي أطاح بكلّ الخصوم،

الرّجل الذي أبكى كل الجزائريين حين نعى الرئيس هواري بومدين يوم جنازته

الرّئيس الذي كان يخطب على النّاس لمدة ثلاث ساعات يتوعّد ويستشهد بالحكم والأمثال والآيات، حتّى أنّ الناس أصبحوا لا يطفئون التلفاز خشية أي يخرج عليهم ليوبّخهم كما تقول النكتة التي يتداولها الشارع الجزائري، هذا الرجل اليوم يسير على كرسي متحرك ويخاطب ضيوف البلاد بمكروفون وسماعة لزقت بأذنه!

مرّة، زار وفد من التلفزيون الوطني الرّئيس (بوتفليقة)، كان على رأس هذا الوفد معلّق رياضي مشهور، طلب الوفد من الرئيس أن يسمح للقناة الوطنية الجزائرية أن تستثمر في شراء حقوق البثّ لمقابلات كرة القدم لكأس العالم، عوض أن تترك قناة (الجزيرة) القطرية شراء الحقوق، وبيعها للجزائر وللدول الإفريقية والعربية بأثمان خيالية، فرد عليهم (بوتفليقة):

- إذا إشتغل الناس بكرة القدم، من سيسمع خطاباتي؟

الرّئيس الذي هزم الجنرالات وضبّاط فرنسا بحنكته ومكره!

ها هو الآن لا يقوى على الحركة، أصبح الشارع الجزائري يقصّ أثره كل يوم، تماما مثل الأم التي تنتظر من طفلها الصغير كلمته الأولى ومشيته الأولى!

هاو ناض!

هاو تكلم!

هاو شرب قهوة!

هاو هز فنجان!

هاو ضحك!

هاو حرّك راسو!

نظر إلى السحاب الذي تغوص فيه الطائرة من النافذة الصغيرة المستديرة وهو يقول في نفسه.. الجزائر أكبر من هذه الكوميديا التعيسة!

وضع السمّاعة ليشاهد فيلم من باقة الأفلام المتاحة على متن الطائرة في الرحلات الطويلة، وهو يبحث في قائمة الموسيقى والأفلام الشرقية أوقفته أغنية (هل رأى الحب سكارى مثلنا؟) لأم كلثوم.

إبتسم وهو يستمع إليها، تلك الإبتسامة التي توحي له بأنّه فتح باب فكرة جديدة، سيعيد صياغة الكلمات لتتلاءم مع المشهد في الجزائر.

كتب الكلمات، محا بعضا منها، أعاد صياغة البعض الآخر، قرأ ما كتب وهو يغنّيها على لحن أغنية أم كلثوم، إبتسم من جديد..

هل رأى الحكم سكارى مثلنا؟

كم قسمنا من أموال بيننا

كم نهبنا من ملايير لنا

كم أكلنا من كباش شويت لنا

كم شكبنا من بترول في جيوبنا

هل رأى الشعب سرّاقا مثلنا؟

كم كذبنا كذبا يحلو لنا

كم روينا للغاشي أننا

حاربنا فرنسا من قبل وصدّقنا

لم نكن في الحرب إلا تبّعا أو عملاء

لم نحارب

لم نجاهد

لم ندافع عن أي شيء

سوى عن (الشكارة)

والبقارا كيما حنا

هل رأى الشعب حقارا مثلنا؟

حطت الطائرة على مطار هيثرو بعد سفر دام زمن القصّة التي استحضرها، كيف كلّمها أوّل مرة، كيف إستعطفته بصوتها الحنين، كيف كان جميلا أن يتعرّف على (حيزيته)، هكذا كان يسمّيها بعد طول انتظار، لم يعرف قبلها سوى الأوروبيات اللواتي كن يملأن حياته بين الفينة والأخرى.

كان يشعر بآلام ذلك الرّجل الذي أحبّ حيزية كما تحكي العجائز في جبال الأوراس، كان يريد أن يصرخ بأعلى صوته كما كان يصرخ حبيب حيزية بعد موتها وهو يتحسّس ريحها في كل مكان، يُحكى أنّ حصان الحبيب مات بعد أيام من موت (حيزية) وكأنّ لسان حاله يقول لصاحبه:

ـ ماعاد للحياة طعم بعد رحيل (حيزية)

سألته مرة:

ـ هل أحببت جزائرية قبلي؟

رد عليها:

ـ لم أدخل مدن الحبّ قبلك!

انتظر حتى تفرغ الطائرة من ركّابها، فتح هاتفه ومسح الصور التي إلتقطها في ميامي برفقتها، مسح رقمها وكلّ الرسائل التي تبادلاها منذ أشهر، أخذ حقيبته وسلّم على المضيّفة ثم إنصرف.

كان يريدها استراحة جديدة، سفر في زورق الحبّ، استراحة المقاتل المانع، كان يريدها لتحبّه ويضيفها إلى قائمة جميلات العشق الممنوع ، كان يريدها ليزور معها مدينة حبّ جديدة ، لهفة ولوعة وقبلة وعناق!

سحرته بنبرة صوتها، نادته حبيبي كلّ ليلة، سقط المسكين في قبضة السكين وأصبح يتنفّسها ليل مساء، كان يريدها مغامرة جديدة، سجنته في قلبها فمات في حبها وانهزم!

قبل أن ينغمس في مستنقع الإعلام كما يسمّيه، كان مدرّسا للرياضيات في إحدى الثانويات، وكأن الجامعة الجزائرية لا تنجب إلا الأساتذة !

لذلك تجد في المدرسة الجزائرية المهندس والطبيب والأديب والبيطري يدرّسون موادا ليست من اختصاصهم، هكذا دمّرت المنظومة التربوية الجزائرية المدرسة في البلاد!

في الدول الغربية المتطورة من المستحيل لخريج جامعة أن يصبح أستاذا دون الحصول على شهادة بيداغوجية، ففي سويسرا مثلا، أساتذة الطور الإبتدائي يتقاضون أجورا تضاهي أجور التعليم الثانوي، ذلك لأنّ الدولة تولي إهتماما بالغا بتربية النشء!

في الجزائر، أساتذة التعليم الإبتدائي معظمهم من الطلبة الذين لم يتحصلوا على شهادة الباكالوريا!

أساتذة لاتتوفّر فيهم أدنى شروط التعليم، فلا هم يحبّون التدريس ولا سمحت لهم الدولة بمتابعة دورات تكوينية بيداغوجية تفتح لهم آفاق التعليم، لذا كثيرا ما نسمع بطفل أو طفلة فقعت عينه أو كسرت يدها على يد مدرّس أو مدرّسة في القسم لأنهما نسيا مئزرهما أو شيئا من هذا القبيل!

وهذا جرم في حق البلاد والعباد!

كل من ينهي دراسته العليا في هذه البلاد يجد نفسه في قسم من جديد، دون أدنى تجربة بيداغوجية، المعلم عندنا يلقي درسه دون منهاج علمي، الأساتذة عندنا همّهم الوحيد لقمة العيش وأسمى أهدافهم ليست التربية والتعليم ولكن الظفر بسكن يأويهم هم وعائلاتهم!

كان يحبّ التعليم، لذلك أحبه التلاميذ كثيرا، كان يجعل من كل درس مسرحية أو أسطورة تاريخية.

كان يبدأ درسه بسرد كل المعلومات التاريخية عن مبادئ التحليل الرياضي، وفي كل نهاية فصل كان يقيم مسابقة في لعبة الشطرنج ويوزع الشكلاطة والحلوى على الجميع.

كان في كل مرّة يذكّر تلاميذه بأنّ للجميع نفس القدرة على استيعاب أصعب الأمور، الفرق يكمن في قوّة ذاكرتنا التي يجب تدريبها كما يدرّب الرياضي جسده على تحمّل أصعب المسابقات الرياضية!

كان يقول لتلاميذه قسّموا ذاكرتكم إلى عدّة أدراج، في كلّ درج ضعوا مادّة معيّنة أو تحليلا معيّنا أو تجربة معينة وستهتدي ذاكرتكم في كل مرة إلى درج معين ليسهل عليها إيجاد الحلول المناسبة!

مرة، طلب من أحد تلاميذه أن يحلّ دالة هندسية فبقي دقائق طويلة أمام السبورة يتفرج!

فسـأله:

ـ ماذا تنتظر؟

فرد عليه التلميذ:

ـ لا أجد الدرج في ذاكرتي يا شيخ!

فضحك الجميع حتى سالت دموع البعض!

عندما خرج من مطار هيثرو، فتح درجا جديدا في ذاكرته، وضع فيه طائرة الخطوط الجويّة البريطانية والمدينة الأمريكيّة التي لم يزرها، وضع في الدّرج غرفة فندق انتظر فيه قصة حبّ لم تبدأ، أغلق الدرج بإحكام ثم عاد إلى الحرب من جديد!

ـ لقد كنت قاسيا على بن فليس هذه المرّة!

هكذا استقبله رئيس التحرير بداية الأسبوع، رد عليه ويده تتحسس أحرف حاسوبه (الماكبوك).

ـ لقد كنت واقعيًا لا غير، هذا الرّجل قدّم خدمة جليلة للرّئيس المترشّح، لقد أضفى بترشّحه قليلا من المصداقية على هذه المسرحيّة الانتخابية السخيفة، لقد لدغ من نفس الجحر مرتين!

كان يعلم أنّه من المقرّبين ل (سي بن فليس)، كان يحلم بحقيبة وزارية كالكثير من الذين ساندوا هذا المحامي الذي اعتاد المرتبة الثانية في كل الإستحقاقات التي شارك فيها!

اعتاد على قول الكلمات دون إختيار ألينها، الأمر الذي جعل بعض زملائه في القناة التي كان يعمل فيها ممّن يحتمون برئيس التحرير يمتنعون حتّى عن التحدّث إليه، لكنّ الأمر لا يهمه، إرضاء الناس غاية لا تدرك وإرضاء الخصوم أمر مستحيل!

كلّ أسبوع كان عليه أن يفضح أكثر منظومة الحكم التي عاثت في الأرض فسادا، كلّ أسبوع كان عليه أن يزلزل صرح العائلة الحاكمة التي صارت تسيّر البلاد كما تسيّر كبرى عائلات المافيا الإيطالية!

كلّ أسبوع كان يرمي بنفســه في جبّ المخاطر، وكلّ أسبوع تتّسع رقعة أعدائه لتشمل كل مسؤول في الحكم، وكل أسبوع كان يمسح من بريده رسائل التهديد والوعيد!

أعطته السكرتيرة رقم هاتف من الجزائر وهي تقول:

- هذه السيدة كلمتك عدة مرات، طلبت منك أن تتصل بها..

كلمها، فرحت لما سمعت صوته أخيرا!

قالت له :

- أنا خالتك (زكية) عندي 78 سنة يا وليدي!

- الله يبارك يا الحاجة أدعيلي..

- ربي يحميك وليدي من (هاذ) المجرمين، كلما شوهت صورة هؤلاء كلما زادت سعادتي !

رسائل كهاته الشهادة كانت تصله كل يوم، من شباب وشيوخ ومراهقين، وجدوا في برنامجه الأسبوعي (واش قـالوا فالجرنان) صدى لصراخهم الذي لا يكاد يسمع في جزائر العزة والكرامة!

هذه الرسائل كانت مصدر إلهامه تمدّه بطاقة عجيبة!

كانت الكتابة ملجأه الوحيد، كم من مرّة حدّثته نفسه أن إفتح ذلك الدّرج الذي غلّقه بإحكام في ذاكرته؟ كم من مرّة إستيقظ في اللّيل خلسة ينتظر رسالة إلكترونية لم تظهر على شاشة هاتفه؟

الكتابة وحدها كانت تنسيه آلام هاته الحرب التي يخوضها في صمت ضد ذاكرته!

مرّت الأيام والشّهور منذ تلك الرّحلة العجيبة التي قادته إليها ليفترقا، لم يغيّر شيئا في عاداته، يكتب في الصّباح مقالاته ويكتب في اللّيل تنهيداته!

يخرج للجري في الحديقة الكبيرة المحاذية لمنزله، حتى ينهكه التعب ثم يعود إلى البيت ليغرق في حمام ساخن!

كان يكتب لها كل يوم، كلمات متقاطعة لا تفهما إلا هي، أسرار مخبأة في حروف، كم من كلمة أصبح لها معنى جديد حسب الزمان والمكان، حتى النقاط المتتالية تحكي حكاية حبهما العجيبة، كان يضع كل أحاسيسه في (الآيفون) اللعين الذي أصبح بئر أسراره!

كانا قد تواعدا على اللقاء في باريس هذا الصّيف، كتب لها في الشّتاء..

لم أتحسَّس يدها

لم أحتسِ فمها
لم أغرق في ريح شعرها
لكنني ملك لها
لم ألم على صدرها
لم أقبل خصرها
وخدها.. وكل ماهو لها
لكنني أحبّها
لم ألتق بها
لن أفرح بها
لن أفاجئها
لن أخذلها
لن أكون حبيبها
أو عشيقها
أو حتى دليلها
في باريس وأزقتها..
ماتت قصّتنا قبل أن أزورها!

كاسكيطة القايد!

هناك حقيقة يجب أن نعترف بها وهي أن الأشرار دائما يتحدون ويقفون صفا واحدا رغم ما في نفوسهم من كراهية لبعضهم البعض، أما دعاة الخير فهم متفرقون وهذا سر ضعفهم !

(برتراند راسل)

يعتبر الفريق (قـايد صالح)، أكبر جندي على وجه الأرض سنّا لازال ضابطا في المؤسسة العسكرية، شيخ في الخامسة والسبعين من عمره، نائب لوزير الدفاع وقائد أركان الجيش الجزائري!

إعتبرته برقيات (ويكيليكس) التابعة للدبلوماسية الأمريكية، والتي نشرتها صحيفة (البايس) الإسبانية، أفسد ضابط في الجيش الجزائري، نفس البرقيات تحدثت عن غرق شقيقي الرّئيس (سعيد) و(عبد الغني) في النهب والسرقة!

(قـايد صالح) شخص ماكر، غليظ سيء الطبع والمزاج، عديم الذّكاء، لا يخلو كلامه أبدا من السبّ والشتم والألفاظ البذيئة حتى مع كبار الضباط في الجيش، تعددت نشاطاته التّجارية، (الـقـايد) يملك مخبزة كبيرة توفّر الخبز للعديد من الثكنات العسكرية، كما يملك مركزا تجاريا بالقرب من المستشفى الجامعي (بن رشد) بمدينة عنّابة يحرسه رجال الأمن ليل نهار!

استولى أبناء (القايد صالح) وعائلته المقرّبة على العديد من المشاريع بطريقة غير قانونية، ومن بين المقربين للفريق (الـقـايد)، المقاول والبرلماني في كتلة (الأفلان)، (بهاء طليبة).. (النوبل كاربيراتور)،

شخصية معروفة في الوسط العنابي بنشاطاته التجارية المشبوهة، صاحب عقارات بُنيت بقرارات ورخص غير قانونية، عمليات النهب والسطو على العقار وأراضي الولاية من طرف أبناء (القايد) و(الدوبل كاربيراتور)، ذهب ضحيّتها والي مدينة عنابة (محمد صنديد)، الذي توفي إثر أزمة قلبية!

أنا رب الجزاير!

السلاحف أكثر خبرة بالطرق من الأرانب

(جبران خليل جبران)

الجنرال (محمد مدين) المدعو (توفيق)، حالة لم يشهد لها العالم مثيلا على الإطلاق!

لأوّل مرّة في تاريخ البشريّة، يبني شخص أسطورة وهو مختفٍ عن الأنظار، (التوفيق) لم يره أحد، لم يسمعه أحد، لا يعرفه الشّعب الجزائري، ورغم كلّ هذا فهو الثّابت وكلّ من سواه هو المتغيّر كما يقول دائما (محمد العربي زيطوط) دبلوماسي سابق رمى جوازه الأحمر وفضّل الهجرة إلى (بريطانيا) ومعارضة الجنرالات الذين يمثّلون حسب رأيه مشكلة منظومة الحكم في الجزائر-!

الجنرال (توفيق) لغز حيّر كلّ الجزائريين، بقاؤه على رأس جهاز المخابرات قرابة ربع قرن يكفي لأن يحاط الرّجل بهالة كبيرة، ابن بلدية (قنزات) بولاية سطيف كان الحاكم الفعلي للبلاد بصلاحيات غير محدودة، جعلته يصرخ في وجه العقيد (شوشان) الذي أشتبه في ضلوعه مع ضبّاط سامين في الجيش، في مخطط للقيام بإنقلاب عسكري لصالح الجبهة الإسلامية للإنقاذ، بأنّه هو الآمر الناهي في البلاد!

النقيب (أحمد شوشان) الذي هرب إلى بريطانيا هو الآخر، بعد أن سجن مع بعض الضبّاط بتهمة تحضير إنقلاب عسكري لصالح (الفيس)، صرّح بأنّ الجنرال (توفيق) قال له بالحرف الواحد وهو يستنطقه بمقرّ المخابرات بالعاصمة:

ـ أنا رب دزاير!

إتفق مؤيدو الفريق الأوّل (توفيق) وأعداؤه بأنّ الرّجل لم يشارك في أي صفقة مشبوهة من الصفقات التي جعلت من قرنائه ينهبون الملايير، لم يستورد لا الدواء ولا السكّر ولا الزّيت ولا المفرقعات، لم يُدخل حاوية واحدة عبر جسر (الجنرالات) المحاذي لميناء الجزائر !

الرّجل يعيش ببساطة مع عائلته ككلّ الجزائريين، يهوى كرة القدم، لذا كان قبل أن يجبره سنّه على الابتعاد عن التمارين الرياضية الشاقّة، يلعب مرة كلّ أسبوع مع قدامى لاعبي الفريق الوطني، لعلها الفائدة الوحيدة التي جناها من منصبه !

لا جرم أن للجنرال (اللغز) ملفّات سرّيّة، جعلته يخيف الجميع طيلة ربع قرن، لكن (بوتفليقة) قد بدّد خوف الكثيرين بعد ترشحه لعهدة ثالثة ورابعة، (بوتفليقة) الذي لا يعرف السّلطة إلا من منظار التوازنات قد يكون رجّح الكفّة لصالحه في نهاية المطاف، لكلّ شخص ثمن كان يقول دائما!

هل كان يعلم (توفيق) بمخطط إغتيال (بوضياف)؟

كيف ترك هذا الجنرال النّزيه كما يصفه الكثيرون ، (بوتفليقة) و(المافيا) التي معه تستنزف ثروات البلاد؟

كيف سمح الجنرال الشّبح لشخص قريب من جهاز الإستعلامات الأمريكي (شكيب خليل) أن يصبح وزيرا للطاقة في الجزائر، وبالتالي يتحكّم في مصير جيوب الجزائريين؟

كيف سكت على فضيحة خليفة بنك التي كلّفت الخزينة الجزائرية 3.5 مليار دولار؟

كيف يسكت هذا الجنرال على تعيين وزراء نهبوا الملايير في مشاريع لم تر النّور؟

لماذا سكت رب الجزائر على فضيحة الطريق السيّار الذي إلتهم 20 مليار دولار؟

كيف سمح ل (بوتفليقة) أن يغتصب الدّستور، ويغيّر المادّة الّتي تنصّ على عهدتين رئاسيتين لا غير، ليترشح لعهدة ثالثة ورابعة!

هذه الأسئلة لا تستدعي أجوبة، لكنّها ترفع اللّثام عن حقيقة التوازنات الّتي بنيت عليها منظومة الحكم في الجزائر!

أكره الضحايا الذين يحترمون جلاديهم!

(جان بول سارتر)

في الجزائر أصبح الحلم جريمة يغرّم عليها الإنسان أو يسجن، ممنوع أن تحلم بالحبّ والسّلام، ممنوع أن تحلم باختيار من يمثّلك، ممنوع أن تمتنع عن التصفيق للرّئيس الذي اختاره الجيش، لا لأنّه الأجدر ولكن كما قال الجنرال (نزار) لأنّه الألين!

في الجزائر الوزراء يعيّنون حسب الصّداقة والقرابة ويطبّقون سياسة الرّئيس، البرلمان أصبح غرفة لتسجيل أهواء الرّئيس والأحزاب السّياسيّة تتهافت لتفوز بمباركة الزّعيم!

وزراء (بوتفليقة) لهم مهمّة تسلية الرّئيس، كما كان في عهد الأمراء قديما دور المهرّج الذي يناديه الحاجب كلّما كان مزاج الملك (مكرفس)!

(خليدة مسعودي) التي كانت وزيرة للثّقافة لأكثر من 12 سنة، بدّدت الملايير من أجل حفلات ماجنة ومهرجانات تافهة لم يستفد منها الشّعب!

ميزانية (تلمسان) و(قسنطينة) لتكونا عاصمة للثقافة العربية تفوق ميزانية عدّة دول إفريقية!

كانت الشّركات الموالية للسيّدة الوزيرة - إن لم تكن ملكا لها تحت إسم مستعار- تفوز بكلّ المناقصات المشبوهة التي خصّصت لتحضير هاتين التظاهرتين.

المئات من ملايين الدّولارات، حوّلت إلى وجهات مجهولة عن طريق العديد من المشاريع التي وافق عليها البرلمان ولم تر النّور..

(خليدة مسعودي) دخلت الحكومة وهي أستاذة للرياضيات في ثانوية بالعاصمة، وخرجت منها وهي سيدة أعمال تسيّر إمبراطوريّة تمتد من شركة تتكفّل بتنظيم الحفلات والمهرجانات، إلى شركة شاحنات لنقل البنزين إنتهاء إلى أسطول لقوارب الصيد!

(خليدة) تهوى السّكر والمجون، مثلها مثل وليّ نعمتها، مرّة وهي في زيارة ل(فيينا) العاصمة النّمساوية، كانت مدعوّة لتمثل الجزائر في حفل دبلوماسيّ، شربت في تلك السّهرة حتى الثّمالة، الأمر الذي اغتاظ منه المسؤول الأمني بالسّفارة الجزائريّة الذي أرسل برقية لمكتب الرّئيس!

(بوتفليقة) ستر المسكينة وقال لمن كانوا حوله، أنا بحاجة إلى سيجارة (خليدة) ولحية (بوجرة)!

(أبو جرة سلطاني) الذي كان في التسعينات يرسل العشرات من الشّباب الجزائري إلى أفغانستان، أصبح وزيرا في الائتلاف الرّئاسي، بعد أن خلف المرحوم (محفوظ نحناح) على رأس حزب (حركة مجتمع السّلم) .

لو كان الرّسول معنا، للبس (التويد) وربطة العنق، هكذا أصبح يتكلّم الشيخ (بوقـرة) بعد أن أغدق عليه (بوتفليقة) بحقيبة وزاريّة، القاضية التي كانت تحقّق في فضيحة بنك (خليفة)، سألت السيّد (بوقـرة) كيف أصبح ابنه الذي لم يتحصّل على شهادة الباكالوريا، مديرا لفرع بنكي تابع ل (خليفة بنك)؟ فردّ عليها ببرودة دم:

- كلّ الجزائر كانت تشتغل في بنك (خليفة) سيّدتي القاضية!

مرّة أخذ (بوقـرة) سمّاعة الهاتف، وأسمع موظّفة في الرّئاسة كلّ أنواع السبّ والشتم، لأنّها كتبت على جوازه الدبلوماسيّ الأحمر في خانة المهنة (وزير) فقط، نست المسكينة أن تضيف كلمة (دولة)!

أخذ مسؤول القسم في الرّئاسة السمّاعة من يد الموظّفة التي كانت تبكي واعتذر للسيّد معالي الوزير (بوقـرة) وأرسل له جواز سفر آخر مكتوب عليه بالخط العريض.. (المهنة: وزير دولة).

(عمّار غول) مثال مدهش لوزراء (بوتفليقة)، هو كذلك من طراز (أشرار يحميهم القانون)!

كان وزيرا للصّيد البحري ثمّ للأشغال العموميّة منذ 1999، ثم وزيرا للنقل ثم وزيرا للسياحة، أي منذ تولّي (بوتفليقة) الحكم كان (الهول) كما يسمّيه الشّارع الجزائري، موجودا في حكومات العهدات الأربعة لفخامته!

(عمّار غول) الذي كان يصلّي بالطلبة في مسجد الجامعة بمدينة (ماتز) الفرنسية أين كان يزاول دراسته، تعوّد أن يلتقي بين الفينة والأخرى بضابط للمخابرات تابع للسّفارة الجزائريّة، ليسلّم له تقاريره عن الطّلبة الجزائريين!

(غول) بعد أن اخترق حزب (مجتمع السّلم) وأفرغه من قاعدته المعارضة للحكم قرّر إنشاء حزب جديد (تجمع أمل الجزائر)، هذا الحزب الذي أسندت له مهمّة مساندة (بوتفليقة) للبقاء في الحكم مدى الحياة!

العديد من إطارات وزارة (عمّار غول) توبعوا قضائيا بتهمة اختلاس أموال مشروع الطّريق السيّار

(شرق ـ غرب) الذي يبلغ طوله 1200 كلم والذي يعتبر أكبر مشروع للطّريق السيّار في إفريقيا، هذا المشروع الذي بدأ بتكلفة إجمالية تقدّر ب 9 مليار دولار، كلّف خزينة الدولة لحدّ السّاعة أكثر من 15 مليار دولار دون أن تستلمه الجزائر نهائيًا!

الأمين العام السابق لوزارة (غول) السيد (بوشامة محمد) توبع قضائيا بتهمة إستغلال النفوذ وتلقي هدايا غير مستحقة والرشوة وإساءة إستغلال الوظيفة، (حمدان سليم رشيد) مدير التخطيط بنفس الوزارة مسجون بتهمة تكوين مجموعة أشرار واستغلال النفوذ، زوجة هذا الأخير وإبنة (عبد الكريم غريب) الذي كان سفيرا للجزائر في (مالي) هي الأخرى متابعة قضائيا مع أخواتها بتهمة المشاركة في تبييض الأموال.

(غزالي أحمد رفيق) مدير الجزائرية لتسيير الطرقات السريعة بوزارة النقل سجن بتهمة تنظيم جماعة أشرار وتلقي هدايا غير قانونية واستغلال النفوذ وتبديد أموال عمومية، (خلادي محمد) كان مديرا للمشاريع الجديدة لدى الوكالة الوطنية للطريق السريع وكان يتلقى كل أوامره من الوزير (غول) دون وسيط، (خلادي) كان يطلب من الشركات الأجنبية التي تتعاقد معها الجزائر، بأن تأجر له ولعدد من أصدقائه فيلات في العاصمة الجزائرة وتقوم بتأثيثها، (خلادي) سجن بتهمة تبديد أموال عمومية وإستغلال النفوذ والرشوة، كل هذا يا (جدكم) والوزير (غول) لازال وزيرا (غولا)!

كانت العرب قديما تزعم أن الغول نوع من الشياطين يظهر للناس في الفلاة، فيتلون لهم في صور شتى ويغولهم حتى يهلكهم ويضلهم!

المعجم العربي يفسر كلمة الغول بما يلي:

الغول: كل ما أخذ الإنسان من حيث لا يدري فأهلكه!

إطار سامي في وزارة الخارجية أسر في جلسة خاصة أن المخابرات الجزائرية وجدت حسابا بنكيا في فرنسا بقيمة 200 مليون أورو يمتلكه مسؤول تابع لفريق الوزير (غول) لكن هذا الأمر بقي في درج الجنرال (توفيق)!

إمّا أن يكون السيّد الوزير (غول) على علم بالاختلاسات وبالتالي فهو متورّط كذلك في نهب أموال الشّعب وهذا أمر خطير، وإمّا أنه كان يجهل تماما تلاعبات العديد من المسؤولين في وزارته بأموال المشروع وهذا أخطر، لأنه في هذه الحالة غير كفء تماما لهذا المنصب!

وفي كل الحالات يعتبر الطريق السيار الذي أنجزه هذا الوزير أغلى من أي طريق في العالم، إذ تبلغ كلفة إنجاز الكيلومتر الواحد في أوروبا مثلا ما بين 5 و 6 مليون دولار، هذه التكلفة فاقت 8 مليون دولار في الجزائر!

وإذا قمنا بعملية حسابية بسيطة فإن الفرق الإجمالي في التكلفة سيصبح :

2 مليون دولار 1200X كلم - 2400 مليون دولار أي 2.4 مليار دولار

(عمّار غول) إنتقل من وزارة الأشغال العمومية إلى وزارة النقل، يسيّرها كما كان يسيّر قطاع الأشغال العموميّة، تذاكر الخطوط الجوية

الجزائرية لا تزال هي الأغلى في العالم، رغم الخدمات السيّئة التي لطّخت سمعة هذه الشركة، طائرات وسخة، تصل متأخرة وتطير بعد بضع ساعات عن موعد إقلاعها، النّاس في الجزائر يسمّون هذه الشركة (آر كسكوس)!

في **2014**، نظّمت (آر كسكوس) كما يسمي الشارع الجزائري الشركة الجزائرية للطيران، مسابقة وطنية لتكوين **200** طيّارا، الآلاف من الطلبة الجامعيين سجّلوا أسماءهم للمشاركة، لكن كالعادة القضيّة (مطبوخة) كما قال أحد المسؤولين لطالب وصله الاستدعاء على بريده الإلكتروني ليلة الامتحان كي يلتحق صباحا بالعاصمة الجزائرية أين يُجرى الامتحان، رغم أنّه يسكن على بعد ألف كيلومتر من العاصمة!

ـ لماذا أنت منزعج ؟ لا تُزعج نفسك يا ولدي فقائمة النّاجحين في المسابقة حسم فيها منذ زمن!

(عمّار غول)، تكفّل شخصيًا بأسماء القائمة، المئة إسم الأولى ضمّتْ أسماء أبناء كبار المسؤولين في الدّولة، تلتها قائمة تحوي خمسين اسما كلّهم أبناء كبار الضبّاط، و أبناء رجال الأعمال!

في ماي **2015** عين (غول) وزيرا للسياحة، المسكين في ورطة، لن يستطيع التستر وراء إنعدام الطرقات ووسائل النقل لجلب السياح بعد أن كان وزيرا للأشغال العمومية والنقل على التوالي!

حزب (FLN)..الفرنك ألي بقى ندوه !

لا تخلو مدينة في الجزائر من مقر لهذا الحزب العتيد، عندما حاور (حسين مالطي) المدير السابق لشركة سوناطراك، قص عليه حكاية غريبة تبين مدى قوة هذا الحزب الذي جعلت منه السلطة مدرعة حربية للبقاء في الحكم!

(مالطي) كان أول من سير قاعدة (حاسي مسعود) بعد تأميم المحروقات من طرف الرئيس (بومدين)، كما كان نائبا للمدير العام لمجمع (سوناطراك) حينها (سيد أحمد غزالي).

في سنة 1971، قرر (بومدين) إقامة إحتفالات ضخمة بمناسبة إنقلابه على (بن بلة)، الإنقلاب في الجزائر تسميه العائلة الثورية (التصحيح الثوري)!

ولكي تكون الفرحة فرحتان، سيقام أكبر حفل في قاعدة (حاسي مسعود) التي أممها (بومدين) منذ أربعة أشهر.

(مالطي) وترسانته تحولوا من مهندسين في البترول، إلى جيش يحضر 600 مشوي، ويزين (شاليهات) لكبار المسؤولين والدبلوماسيين الأجانب الذين سيسافرون مع الرئيس، طائرة خاصة محملة بالأزهار جاءت من العاصمة، 1200 بدلة تقليدية تم إقتناؤها في أسواق المدن المجاورة لفرق الرقص الشعبي التي ستحيي السهرة!

المشكلة التي أرقت سي (المالطي) هي المشروبات الكحولية، الأوامر الفوقية تلزمه توفير كمية معتبرة من (الويسكي) والنبيذ، لكن سرعان ما طمأنه الوزير (عبدالمجيد علاهم) لا تقلق قال له:

ـ ضع الصناديق في (شالي) (بوتفليقة) وسنتكفل بتوزيعها على الضيوف!

اليوم خمر وغدا غدر!

أيام بعد هذا، قدم (مالطي) فاتورة الحفل الخيالي إلى مديره (سيد أحمد غزالي)، طالبا منه هل يجب إرسالها للرئاسة؟

ـ هل أنت مجنون، أدرج المبلغ في تكاليف إستخراج النفط الخام من القاعدة، رد عليه المدير!

مبلغ الفاتورة الإجمالي للحفل بلغ **14** مليون دينار سنة **1971**، ما يساوي اليوم ماقيمته **75** مليار سنتيم، **75** مليار صرفت في المشوي والزهور وبدلات الرقص الشعبي وصناديق (الويسكي).

تاريخ النهب لأموال الشعب ضارب في القدم!

بعد مغادرة الفرنسيين للقاعدة، طلب الوزير (بلعيد عبد السلام) من (مالطي) بناء مدينة جديدة بكل المرافق ليعيش فيها العمال، تختلف عن سكنات القاعدة البترولية التي لا تسمح بالراحة والترفيه عن النفس.(مالطي) قام بتقديم المشروع على سلطات (حاسي مسعود) المدنية والعسكرية، (العربي بلخير) الذي كان قائد للناحية العسكرية الرابعة، قال له بعد تفحص مخطط المشروع:

ـ سأوافق على هذا المشروع، شرط أن تبنوا لنا مقرا كبيرا (للأفلان).. وسجن!

هذه هي العقلية يا سي، (الأفلان) كان هدفه وضع الشعب بأسره في سجن كبير!

لن تكتمل اللّوحة، دون الحديث عن (عمّار سعداني) المعجزة!

كان تاجرا في السّياسة، أسّس جمعية لمساندة الرّئيس (الشادلي)، وجمعية لمساندة الرئيس (بوضياف)، وجمعية لمساندة الرئيس (زروال) سمّاها وليمة الرئيس!

(سعداني) جمع أموالا طائلة من هذه الجمعيات، لكنّ الحصان الذي أربحه الملايير (المليرة) هو (بوتفليقة)ـ (سعداني) حدسه لم يخنه عندما سرق جمعية مساندة الرئيس (بوتفليقة) من رئيسها الحقيقي في مدينة (الوادي).

البلاد كلّها قضية ولائم لا غير!

(سعداني) ولد بقرية (أم العرائس) في ولاية (قفصة) بالجنوب التونسي، لكنه زوّر شهادة ميلاده ليسجّل نفسه ضمن مواليد مدينة (الوادي)، طرد من المدرسة وهو في الخامسة إبتدائي، لكنّه أخرج من قبّعته السحريّة شهادة مدرسيّة لمستوى الثالثة ثانوي ليترشّح لنيل شهادة (البكالوريا) لكنّه فشل!

(عمّارالأقالاني) لا يعرف الفشل، إن كان لايمتلك القدرات العلمية للنّجاح في هذا الامتحان، فإنّه يملك النفوذ، لذا طلب من غيره اجتياز الامتحان نيابة عنه، وهكذا تحصّل على شهادة البكالوريا!

خلال العشريّة الدمويّة التي شهدتها البلاد، تحوّل (سعداني) إلى قائد لمجموعة مسلّحة للدفاع الذاتي لمكافحة الإرهاب، لكن سرعان ما تحوّلت هذه المجموعة إلي مجموعة أشرار، تقيم حواجز مزيّفة في الطرقات وتترصّد الفلاّحين وبائعي المواشي والإبل.

(سعداني) اليوم رئيس الحزب العتيد، حزب (جبهة التحرير الوطني)، متّهم في قضية إختلاس **300** مليون أورو، كما كتبت صحيفة (لوكانارأنشيني) الفرنسية، ويمتلك شقتين في أرقى الأحياء بالعاصمة (باريس).

(سعداني) يمتلك شهادة إقامة دائمة بفرنسا، خضع سنة 2014للاستجواب من طرف الشّرطة الفرنسية بتهمة تبييض الأموال والكسب غير الشرعي!

هذا هو رئيس حزب (سكينة زيزة)، (وريدة مداد)، (مريم بوعتورة)، (وريدة لوصيف)، (مليكة فَـايد)، (حسيبة بن بوعلي)، (دزاير شايب)، (حليمة عياشي)، (أحمد زبانة)، (بن بولعيد)، (علي لابوانت)، (عبّاس لغرور)، (الكولونيل عميروش)، (سي الحوّاس)، (شعباني)، ومليون شهيدة وشهيد!

(بوتفليقة) هو الآخر، عندما كان وزيرا للخارجية، طلب من كلّ السّفارات الجزائريّة عبر العالم، أن ترسل الفائض من ميزانياتها التي لم تصرف خلال العام المنصرم، إلى حساب بنكي خاص فتحه في بنك (إتحاد بنوك سويسرا **UBS**) ب (جنيف) مدينة الشكولاطة والبنوك السويسرية.

أيام قلائل بعد موت (بومدين)، أخرجت المخابرات الجزائرية التي كان يرأسها (قاصدي مرباح)، هذا الملفّ السرّي، الذي كان يمكن أن يجر (بوتفليقة) إلى حبل المشنقة!

لما أحسّ (بوتفليقة) بأنّه في خطر وأنّ(بومدين) مات ولن يحميه، قدم لخزينة الدّولة صكّا ب**12** مليون دينار جزائري، لكن هذا المبلغ لم يكن يمثل كلّ الأموال التي حوّلها (بوتفليقة) إلى سويسرا.

الرّئيس (شادلي بن جديد) أمر مجلس المحاسبة بفتح تحقيق حول إختلاسات (بوتفليقة) في الفترة الممتدة من سنة **1965** حتى سنة **1978**!

في **8** أوت **1983**، نطق مجلس المحاسبة بحكمه النهائي، (بوتفليقة) إستعمل منصبه من أجل تحويل أموال الخزينة إلى أغراض غير قانونية، قيمة الإختلاس قدّرت بستة ملايير سنتيم نهاية **1979**، هذا المبلغ يضاهي اليوم مبلغ **300** مليار سنتيم!

(بوتفليقة) رفض المثول أمام مجلس المحاسبة، عدّة مرات سافر إليه قضاة إلى (باريس) و (جنيف) لإستنطاقه، كان في كلّ مرّة يبرر وجود هذا الحساب البنكي السرّي، فمرّة هو صندوق سرّي لمساندة القضايا التحررّيّة عبر العالم، ومرّة أخرى من أجل بناءمقر جديد لوزارة الخارجية!

الكذّاب كثير النسيان ! كما يقول المثل الشعبي..

أربع إطارات من المقرّبين من (بوتفليقة) وقتها، سجنوا لمدّة أربع سنوات بسجن الحراش، (بوتفليقة) نجا من السّجن لأنّالرئيس (شادلي بن جديد) عفى عنه!

في **1999** بمدينة (موناكو) الفرنسية، لمّا أصبح(بوتفليقة) رئيسا للجزائر، تحدّث إلى أصدقائه الفرنسيين عن (الشادلي) الذي أشفق عليه قائلا:

ـ (الشادلي) لا يحسن الطيران، لكنّه كان يقود طائرة (بووينغ737)!

هذه هي شخصية (بوتفليقة)، يمكنه أن يشتم شخصا أنجاه من النوم في زنزانة مدى الحياة!

في **2010**، الإعلام السويسري، تحدّث عن ملفّ الأموال المودعة من طرف الحكّام العرب في البنوك السويسرية، أدرج في القائمة شخصا يحمل اسمه هذه العلامات (س ـ ب)، قدّمه التقرير على أنه قريب من الرئيس (بوتفليقة)، هذا الشخص يملك حسابا بقيمة **970** مليون فرنك سويسري، أكثر بقليل من مليار دولار!

الشعب منهمك في الرّكض وراء لقمة العيش، (جوع كلبك يتبّعك) يقول المثل الشعبي، في الجزائر هذا الشّعب جاع وخاف، فأصبح همّه فواتير آخر الشهر، مشكلة المواصلات، مشكلة السّكن، مشكلة البطالة، مشكلة العنوسة، مشكلة الماء، مشكلة الكهرباء، مشكلة الدواء، مشكلة الزيت،مشكلة الهاتف!

الشّعب أصبح ينكّت على نفسه، يقال أنّه لو أنّ مواطنا جزائريّا بات ليلته فرحا، واستيقظ فرحا لسحبت الدّولة منه الجنسيّة!

أدخل الشّعب المسكين في دوّامة من المشاكل فأنّى له أن يفكّر في خلق الأحداث؟

وفي الكواليس ثروات طائلة تخرج إلى العلن، جعلت من الثّروات التي بنتها الجماعات المسلحة تبدو تافهة جدا، الجنرالات الذين كانوا يأخذون نصيبهم من كل صفقة نفطية تبرم مع الجزائر تحوّلوا إلى رجال أعمال هم وعائلاتهم، ولكي لا يتفطّن لهم الشّعب، فضّل الكثير منهم استثمار الأموال التي نهبوها تحت غطاء شركات وهمية يترأسها أناس كانوا بالأمس القريب لا يملكون درّاجة هوائية!

لعلّ خير مثال على ذلك، ثروة (حدّاد) الذي سمحت له صداقته مع أخ الرئيس (سعيد بوتفليقة) أن يتربّع على أكبر مجمّع للأشغال العمومية في البلاد، (حدّاد) كان يفوز بكل المشاريع دون مناقصة تذكر،عشاء

فاخر في فندق فخم مع شقيق الرئيس وكلّ العراقيل البيروقراطية التي وقفت عائقا أمام كبرى الشركات الدّوليّة التي حاولت الاستثمار في البلاد تسقط كقصر من الرمال!

عشاء في فندق في (تيزي وزو) مع (السعيد) و(حدّاد) الذي لم يبن ولو ملعبا لمدرسة إبتدائية، يفوز بصفقة بناء ملعب مدينة (تيزي وزو) التي فاز فريقها بثلاث بطولات إفريقية، يتّسع لخمسين ألف متفرج بقيمة **300** مليون دولار، (حدّاد) فاز بمشروع ضخم لا يستطيع تنفيذه، لا ضير.. سيطلب من شركة إسبانية القيام بالأشغال عوضا عنه، هذه الشركة التي رفعت دعوى قضائية ضدّ (حدّاد) لأنه لم يسدّد مستحقّاتها ولا حتّى أجور العمّال، لا ضير.. مشروع الملعب أسند لشركة تركية تقوم بتنفيذ المشروع!

في أيّة دولة من دول العالم عمل مثل هذا يكلّف صاحبه السّجن ولسنوات طوال، من حسن حظ (حدّاد) هو في الجزائر و (السعيد) صديقه!

(علي حدّاد) اليوم يرأس منتدى رؤساء المؤسسات، يلتقي بالسفير الأمريكي والفرنسي، وهو مرشح لتقلد مناصب سامية أخرى، (لويزة حنون) رئيسة حزب العمال اليسارية التي تعيش اليوم كالأرستوقراطية، صرحت بأن (حداد) هو من يدفع رواتب الكثيرين من وزراء (بوتفليقة)!

من قال بأن الحلم في الجزائر غير ممكن؟

(حدّاد) كان أبوه صاحب بقّالة صغيرة في دائرة (آزفون) ولاية تيزي وزو، يبيع فيها قليلا من الخضر والفواكه والموادّ الغذائية، تحصّل على قرض قيمته ثلاثمائة مليون دولار من البنك الجزائري دون أيّ ضمان للبنك.

(السعيد) أكبر ضمان في الإمارة البوتفليقية!

هكذا بدأ (علي حدّاد) رحلته ليصبح من أثرى أثرياء الجزائر، شركة وهمية للأشغال العمومية لا تمتلك شاحنة واحدة، قرض خيالي من البنك المركزي الجزائري، مشاريع دون مناقصات، مئات العمّال دون ضمان إجتماعي ولا تأمين، كلّ شيء على ما يرام في بلد المليون شهيد!

لكنّ مجمّع (حدّاد) سينفجر، كما انفجر قبله مجمّع (عبد المومن خليفة) الفتى الذهبي، الذي حاز على قرض بنكي من البنك المركزي الجزائري بقيمة **60** مليون دولار!

(خليفة) قدّم شقّة يمتلكها مع إخوته ودكّانا كان يستعمله كصيدليّة في العاصمة، كضمان للظفر بهذا القرض، هاته الأملاك لم تكن قيمتها تتعدّى نصف مليون دولار!

(خليفة) الذي سمحت له الدولة بفتح بنك خاص، أصبح في وقت وجيز (مليارديرا) يموّل فريق (مارسيليا) الفرنسي لكرة القدم، أصبح

يملك شركة (خليفة للطيران)، فتح قناة (تليفزيون خليفة)، ولا تخلو لوحة إشهار في البلاد من اسمه!

(بوتفليقة) قلّد (خليفة) أعلى وسام في الجزائر، وسام الأثير، لأنّه أتى بأكبر الممثّلين الفرنسيين (ديبارديو) و(كاترين دونوف) و(جمال ديوز) وأجلسهم إلى طاولته..

(ديبارديو) صرّح قبل مغادرته للجزائر:

- أدعو كلّ أصدقائي في فرنسا للمجيء إلى الجزائر، هنا يمكنهم ربح أموال كثيرة مع (بوتفليقة)!

ارفع راسك يا بَا!

(بتنهيدة)

عندما ترفع رأسك، يسهل للسّارق إفراغ جيبك!

هذه الحكمة المستوحاة من المقولة الشهيرة للرئيس (بوتفليقة)

كلّما كانت الكذبة كبيرة، كلّما صدّقها النّاس، مجمّع (خليفة) كان جامعة لكبار السرّاق، سرّاق التهموا بشراهة أموال الدولة، ثم ولّوا وجوههم لجيب المواطن المسكين!

كان بنك (خليفة) يعد بأرباح ربويّة خياليّة تصل إلى **12** بالمائة للمبالغ الضخمة!

كان المواطن الجزائري لا يثق في البنوك، الملايير من الأوراق النقديّة كانت تنام في أكياس (بلاستيكية) سوداء، أكياس من المفروض أن تحمل فيها القمامة، أصبحت تستعمل لجمع الدينار الذي لاتتعدى قيمته، قيمة القمامة في السوق السوداء!

(خليفة بنك) أوهم النّاس بأنّهم سيربحون خمس أموالهم كلّ عام، حتّى (الكازينو) لا يرقى حظ الفائز فيه إلى هذا الربح!

صغار التجّار، الحرفيين، قدماء المجاهدين، أرامل المجاهدين، كلّ من كان عنده كيسا أسودَ مملوء بالدنانير، أودعه عند (خليفة)!

مرّة رأى مشهدا غريبا في فرع من فروع البنك، الذي اتّخذ كما في كل ولاية (فيلا) كبيرة مقرا له، الملايير (المملبرة) كانت مرمية على

الأرض، الموظفون كانوا يتخطون تلك الحزم المربوطة بخيوط مطاطية، كما يتفادى الإنسان النجاسة على الأرض!

كلّ يوم، يقول سائق (خليفة) في شهادته، كان ملك الإمبراطورية (مومن)، يأخذ كيسا ملأ بمليارين أو ثلاثة، ويتوجّه نحو شارع (السكوار) لإستبداله بالعملة الصعبة!

كانت أموال المواطن الجزائري، تصبح دينارا وتمسي عملة صعبة، ثم تسافر على متن طائرة تابعة للمجمّع إلى (باريس) في اليوم الموالي، (ولا من شاف ولا من دري)!

عندما خرج سأل أخاه لماذا لا تفتح حسابا عندهم فأجابه:

- لم أسمع بينك يأجر (فيلا) بثلاثين مليون سنتيم للشهر، لماذا لا يبنون أو يشترون مقرّات لهم؟ لا أكذب عليك قلبي لم يسترح لهم!

أخوه (الحو) كما يناديه أصحابه أثناء لعب كرة القدم، كان على حق!

لا شيء يستعصي على (الـڤـلـدن بوي)!

كلّ شيء يلمسه (مومن) يصبح ذهبا، الإعلام الغربي، كتب عنه يوما، أنّ ثروته في خطّها التصاعديّ ستصير أكبر من ثروة (بيل ڤـايتس) مالك (ميكروسوفت) وأغنى رجل في العالم!

في 2002، ومن أجل الترويج لقناته الجديدة (خليفة تيفي)، اشترى (مومن) فيلا فاخرة بمدينة (كان) الفرنسيّة المشهورة بمهرجانها الدّولي للأفلام، بسبعة وثلاثين مليون أورو، ثم أقام سهرة حضرها كلّ نجوم السّنما و الغناء و(الشوبيز)، الكلّ سافر على حساب خليفة في طيّارات خاصّة وأقام في فنادق خمسة نجوم!

كلّ الصحفيين الأجانب الذي غطوا الحدث، استلموا أظرفة مالية للإشهار بأمير السّهر الجديد!

وأخيرا وليس آخرا، اشترى (مومن) ودّ جميع المسؤولين، لمّا سمح لأبنائهم بالدّخول إلى مدرسة تكوين الطيّارين التي أنشأها!

في مركز (مانشستر) لتكوين الطيّارين، اندهش أحد المكونين من ضعف مستوى الطلبة التابعين لبعثة (خليفة)!

طيّار جزائري أخبره أنّه كان ضمن دفعته طلبة أبناء شخصيات معروفة في الجزائر، طردوا في الصفّ الثّانوي!

ابن أخ الرّئيس (بوتفليقة) وحفيد الوزير (بن بوزيد) كانا ضمن هذه الدفعة!

اليوم، ابن أخ الرّئيس، أصبح قائدا لطائرات (البوويڤـسن) في الخطوط الجوّيّة الجزائريّة، وهو القائد الوحيد في العالم، الذي يمنع مضيّفات الطائرة من ذكر اسمه في كلمة الترحيب قبل الإقلاع!

مرّة سأل مواطن إحدى المضيّفات لماذا امتنعت عن ذكر اسم قائد الطائرة، همست في أذنه إنه بن أخ الرّئيس، ممنوع ذكر اسمه لأسباب أمنية..

ألهذا الحدّ يعلم (بوتفليقة) وحاشيته أنّ الشعب يمقتهم ؟!

(مومن خليفة) ينام اليوم في سجن (الحرّاش)، بعد أن أصدرت الجزائر في حقّه مذكّرة اعتقال دوليّة، وطلبت على إستحياء من السّلطات البريطانية تسليمه للجزائر.

فضيحة (خليفة)، قضية تأرّق الكثير من المسؤولين في الجزائر، لذا العدالة في البلاد لم تتسرّع في فتح هذا الملف من جديد، جلسات قضائية عديدة تمّ رفعها ،كلّ مرّة لغياب الشّهود من كبار المسؤولين في الدولة!

الكلّ غطس في إناء العسل، جلّ الوزراء كانوا يمتلكون بطاقة سحب بنكية (ڤـولد كارد) من (خليفة بنك)، (مراد مدلسي) وزير الخارجيّة، وزير الماليّة (كريم جودي)، (عبدالمجيد تبّون) وزير السّكن، قائمة طويلة تضم أكثر من سبعين وزيرا ومسؤولا ساميا في الدولة!

(عبد الغني) أخ الرئيس بوتفليقة الذي كان يشغل منصب محامي مجمّع (خليفة)، اشترى شقّة في باريس بقرض سخي من (خليفة بنك) لم يسدّد لحدّ السّاعة!

(سيدي السعيد) رئيس الإتحاد العام للعمّال الجزائريين، حوّل كلّ أموال تأمين العمّال إلى (خليفة بنك)، **100** مليار سنتيم، حوّلت بإمضاءات مزوّرة بنسبة ربح **12** بالمائة!

القاضية سألت (سيدي السعيد) عن حقيقة هذه الإمضاءات، فردّ عليها:

ـ سيّدتي نعم أنا أمضيت في مكان المجلس العام، لكنّ الجميع أعطاني موافقته!

هذا المحتال، لم يدخل السّجن، ولا يزال في منصبه، أشرار يحميهم القانون!

لكنّ مجمّع (حدّاد) سينفجر، كما انفجر البالون الكاذب لإمبراطورية الفتى الذهبي (مومن خليفة)، حتما نفس الأسباب تؤدي إلى نفس النتائج!

التقرير الأمريكي الأخير، يقول بأنّ الرّئيس اليمني (علي عبد الله صالح) إختلس قرابة **40** مليار على مدار عشرين سنة من الحكم، اليمن الذي يمثّل البترول رغم قلّته **90** بالمئة من مداخيله ، تماما مثل الجزائر، لكنّه يعتبر من أفقر دول العالم!

(علي عبد الله صالح) كان كل سنة، يحوّل وجهة ملياري دولار من خزينة الدولة إلى حسابه الخاص، نسبة كبيرة من هذا المبلغ كانت تأتي كمساعدات دولية للشّعب اليمني!

هذا في اليمن، ما هو حجم الإختلاسات في الجزائر؟ وزير المالية الأسبق (علي بن واري) صرّح له بأنّ أكثر من **200** مليار دولار تنام في البنوك السويسرية سرقت من خزينة الدولة!

هذه هي صورة الجزائر في زمان (طاب جنانو)!

في زمان طاب جنانو، عرفنا (شمسو) إمام (اللحيس)، وبلحمر طبيب (التوسويس)، في وقته عرفنا (خليدة) الخنفوسة و(لويزة) قرنون، في وقته غلقت المصانع وامتلأت السّجون..

في وقت (طاب جنانه)، دارونا (أوطوروت) تناع الموت، وجامع فسد الدنيا بزوج مليار دولار..

في وقت طاب جنانه، المستشفى عاد قبر، وما يمنع من الموت غير طويل العمر..والسيد (السينيستر) كي تجري كرشه، يجري يداوي في فرنسا بمال الشّعب..

في زمان طاب جنانه (الغول) عاد وزير نتاع الطرق، وبعد ما نهبها وخلاها تصفصي، عطاولوا النقل، باش (آر كسكوس) تعود (طاكسي) (كلانديستان)!

في وقته سادت سياسة (البريكولاج) والرّشوة والمعرفة والإختلاس، حتان أصبحنا مضحكة مابين لجناس!

في وقت (طاب جنانه)، سمعنا بمافيا العقار، والحاويات نتاع الحجر، و(الأمبور-آمبور) يدور!

في وقته، طارت طيارات (فرنسا) في سمانا، ورمت قنابلها على (مالي) الأعزل!

وطارت طيارات بلادنا لأم درمان، باش ندمر الفراعنة من أجل جلد منفوخ.طيارة ما طارت لغزة الجريحة، أو لأطفال سوريا لي ماتوا بغاز السيرين.

طيّارة الرّئيس راحت لفرنسا، باش اتجيب (روجي هنان) يدفن في الجزائر، والجزائري كي يموت خارج لبلاد، حباب ربي يديرولوا لمّة فالجامع باش يديروه في صندوق وتقبلوا طيارات (الجوية الجزائرية) بثلاثة آلاف أورو!

ويجي سي (المدلسي) وزير خارجية بلادنا، لما يستنطقوه أسياده من البرلمان الفرنسي، يقول وهو يضحك: كان جاء التاريخ يمشي قد قد، كان رانا أوروبيين قبل عقد روما!

في عهد (طاب جنانه)، الزطلة أرخس من الخبز، والبطاطا أغلى من الباتان، وقليل الحيا أصبح فنان، ولي يقول كلمة الحق يديروا صورته في (الجرنان)، ويكتبوا تحتها، أيادي خارجية من تمويل (الماريكان)!

في حكمه، المدرسة أصبحت (درسة)، والثانوية (سيرك عمّار)، والجامعة إضراب طول النهار!

في حكمه، الحمار دخل للبرلمان، والثقافة أشطحني (كمان وكمان)، وماتت جزائر الثورة وبا حسرتاه على وقت زمان!

في حكمه، الشباب أصبح يمشي بالموس والسيف، ولي حاب ينجح، لازم يبيع الكيف!

في عهد (عبد القادر المالي)، ولاد الشّعب، في (فلوكة) قطعوا لّبْحر، وكي يموتوا، يقولونا في نشرة الأخبار. مساكن ماعندهمش الزهر!

في حكم (فخامته)، بكات المجاهدة (بوحيرد جميلة)، ونض لبلاد أخذاتها (مادام) دليلة!

الشعوب ليس لها أن تخشى حكوماتها، الحكومات هي التي من شأنها أن تخشى الشعوب!

مافيا العقار نسجت خيوطها في البلاد، فتجد من يملك عدّة شقق يتحصّل على سكن من الدّولة ليعيد بيعه من جديد أضعاف ثمنه في السّوق الموازية.

لذا انظمّ إلى هذه المافيا جميع موظفي أسلاك الدّولة، من الدركي مرورا بموظف الحالة المدنية إلى رئيس الدائرة، الكل يأكل من هذه الكعكة التي خلقت ثروات خيالية في وقت وجيز جدا!

مشكل السّكن في الجزائر هو أم الخبائث في البلاد، فهو رحم العنف والعنوسة والانقطاع عن الدّراسة والطّلاق والمخدّرات وكلّ أوجه الإجرام، لأنّ الشّابّ عندما يحتضنه الشّارع ليل نهار يتعلّم من الشّارع كلّ أنواع الشّرّ!

وككلّ مرّة تقوم فيها السّلطات في بلادنا بتوزيع السكنات على المحتاجين الذين ينتظرون منذ عقود بيتا يأويهم ويسترهم، تحدث فوضى عارمة لا لشيء سوى أنّ هذا التوزيع غير عادل.

كثيرا ما تغيّر القائمة في آخر لحظة لتدرج فيها أسماء (مادام دليلة) و ابن ابن صاحب مول (الباش) كما يقول الشارع عندما يتعلق الأمر بالمحاباة في الجزائر، في كلّ عشر سكنات أعدّتها الدولة لتسكين

النّاس تأخذ (المعريفة) والقرابة والصحبة حصة الأسد، فيحسّ الشّعب بالظلم ويحدث ما لا يحمد عقباه!

مرّة وبعد أن أسقطت أسماء عائلات فقيرة كثيرة من قائمة المستفيدين من السكن لصالح مافيا العقار، خرج العشرات من الشباب لحرق بنايات حكوميّة وغلق الطّرقات الرئيسيّة، شرطي أطلق الرصاص من سلاحة فمات شابّ لم يتجاوز العشرين من عمره!

وهنا سؤال يفرض نفسه، ما هي قيمة المواطن الجزائري في عهد الرئيس بوتفليقة؟

إذا أخذنا شريحة من المجتمع مكوّنة من رجال ونساء، شيوخ وشباب، وافترضنا أنّ هذه الشريحة خرجت في مظاهرة سلميّة تطالب فيها بحقّها في سكن كريم، هذا السّكن الذي وعدهم به كلّ مسؤول غداة كلّ حملة انتخابية، إذا افترضنا أنّ شرطيا من شرطة مكافحة الشغب أطلق الرّصاص من سلاحه صدفة ليطرح شابًا في العشرين جثة هامدة!

هذا الشّابّ الذي مات إذن، دون أن يحقّق أيّ حلم في حياته!

هنا نجد أنفسنا أمام نموذج مثاليّ للدالة التي طرحناها والتي تقول:

(كم يساوي المواطن الجزائري بالعملة المحلية ؟)

إذا افترضنا أنّ الشّابّ الذي مات صدفة بعد طلق ناريّ غير مقصود، إذا افترضنا أنّ له أصدقاء ينشطون على مواقع التواصل الإجتماعي الإلكترونية على غرار موقع (الفايسبوك) وأنّ صور الحادثة أصبحت تتداول من طرف وسائل الإعلام، وإذا افترضنا أنّ الشرطيّ الأوّل في البلاد (الجنرال هامل) ووزير الداخليّة (طيب لوح) لم يكونا

في العاصمة الفرنسيّة باريس لقضاء عطلة نهاية السّنة أو في نزهة (شوبيـڤــن) في شارع (الشانزيليزي)!

إذا إكتملت كل هذه الشروط صدفة نجد أنفسنا أمام صورة سرياليّة بثّتها القناة التلفزيونيّة الرسميّة: الوزير والشرطي الأوّل مع أب الشّابّ القتيل، الوزير يقدّم التعازي لممثّل عائلة الضحيّة ويعطيه ظرفا فيه عشرون مليون سنتيم!

(هاليلويا)! تلكم هي الإجابة!

إذا كان شابّ لم يتعدّ العشرين سنة، أعزب ولم يحقّق أدنى حلم في حياته فإنّ المواطن الجزائريّ قيمته عشرون مليون سنتيم أو ما يقارب ألفين دولار في (السكوار) الحيّ الذي تتبادل فيه العملة الصعبة في العاصمة الجزائرية!

خزينة الدولة مملوءة، لكنّ تقسيم الثروة غير عادل، فبعد أكثر من خمسين سنة من الاستقلال، الجزائر خصّصت سنة **2014** في ميزانيتها، **252333460000** دينار جزائري لوزارة المجاهدين، أي ما يقارب **3** مليار دولار!

البحث العلمي يتحصل على عشر هذا المبلغ، هذه السلطة غير معنية بترسيخ العلم والمعرفة والقراءة في المجتمع، لأنها تعي جيّدا أنّ الشّعب الذي يقرأ، لا يحكمه طاغية!

مرة أعاب النواب الأمركيون على الرئيس (أبرهام لنكلن) قراره رفع الميزانية التي خصّصها للتعليم فردّ عليهم قائلا:

ـ جرّبوا الجهل وستعلمون كم سيكلّف خزينة الدولة!

أبو العتاريس!

فناء دولة الإستبداد لا يصيب المستبدين وحدهم بل يشمل الدمار الأرض والناس والديار، لأن دولة الإستبداد في مراحلها الأخيرة تضرب ضرب عشواء كثور هائج في مصنع فخار، وتحطم نفسها وأهلها وبلدها قبل أن تستسلم للزوال.

وكأنما يستحق على الناس أن يدفعوا في النهاية ثمن سكوتهم الطويل على الظلم وقبولهم القهر والذل والإستعباد!

(عبد الرحمن الكواكبي)

دولة الإستبداد التي بناها (بوتفليقة) طالت الأرض والعباد، حتى سنوات الإرهاب التي ذهب ضحيتها ربع مليون قتيل، وتهجير مليوني شخص وتدمير المنشآت الإقتصادية، لم تكن أشد وطأ من الفساد الأخلاقي والدمار الإجتماعي والثقافي والإنهيار الخلقي الذي خلفته أربع عهدات من حكم (بوتفليقة).

وإذا كان صحيحا أن السعادة هي التلذذ بالمتاعب، فسيكون الشعب الجزائري أسعد شعبا دون منازع!

الشباب العاطل عن العمل أصبح يتطلع للربح السريع وبكل الطرق حتى وإن كانت منافية للقانون، المدرسة والمسجد أصبحا ملحقة رسمية للدفاع عن سياسة الرئيس في المناسبات لا غير، التربية والتعليم وغرس الأخلاق الحميدة في النشأ لم يعد من صلاحيات الإمام والمعلم.

الشارع أصبح يمثل خطرا على المرأة الجزائرية تنتهك فيه حرماتها وتتعرض للسب والشتم والإعتداء والسرقة، كما برزت عادات دخيلة على المجتمع في الملبس والمظهر روجت لها وسائل الإعلام.

فصار الأطفال الصغار يرددون أغاني ماجنة ويرقصون على ألحان موسيقى لم يعهدها المجتمع الجزائري.

ماتت عرى المحبة بين الناس، وقطعت روابط الأخوة التي وحدت الشعب الجزائري في حربه ضد المستعمر الفرنسي.

الجيش الجزائري الذي من مهامه حماية أمن البلاد، أصبح أداة في يد السلطة لتعنيف المتظاهرين من طلبة ومدرسين وعمال وأطباء، رجالا ونساء، كلاهما يأخذ نصيبه من الهراوة في بلد (بوتفليقة).

وعندما يخرج الشعب في مظاهرات سلمية للتنديد بمشروع إستغلال الغاز الصخري في الصحراء الجزائرية، تخرج المدرعات من ثكناتها وكأن البلاد في حرب، شخصيات المعارضة الذين أرادوا مساندة المتظاهرين في مدن الجنوب يُمنعون من دخول مدينتي (عين صالح) و(ورقـلة)، ويرّحلون بالقوة، فأصبح المواطن الجزائري بحاجة إلى تأشيرة للتنقل في بلده!

الغاز الصخري الذي سيلوث المياه الجوفية التي ستشربها الأجيال القادمة، أصبح يمثل مصدر ربح جديد للمافيا التي تحكم البلاد.

هذه المافيا التي أمنت مستقبل أولادها، لا تخاف على مستقبلهم، ولا تبالي لنوعية المياه التي سيشربونها، بما أنهم سيعيشون في روما، مدريد، باريس ولندن!

منظمة (بريتيش جيولوجيكل سرفي) البريطانية، كتبت في تقريرها حول كميات المياه الجوفية في إفريقيا، أن الصحراء الجزائرية تملك أعلى نسبة في القارة، أكثر من عشرون لتر في الثانية!

(عبد المالك سلال)، رئيس الحكومة عند زيارته لجامعة جزائرية، خاطب أحد الطلبة قائلا:

ـ مابك أيها العتريس؟

فسماه الشارع الجزائري (أبو العتاريس)، وعندما خرج الشعب منددا بفكرة إستغلال الصخري،خرج كعادته لتهدئة الأمور فصرح بأن إستغلال الغاز الصخري لا مناص منه في الجزائري، هكذا عهده الجزائريون، كلما أراد إخماد النار سكب عليها قليلا من البنزين!

(سلال) المهرج الذي لا يفقه الشعب خطاباته، لتصبح نكتا تتداول بين الناس، ضرب عرض الحائط، بكل الدراسات الدولية التي خلصت إلى أن إستغلال الغاز الصخري يلوث الطبيعة ويخلف أمراض الجلد والحساسية والسرطان!

(سلال) بدد مخاوف الناس في خطاب رسمي قائلا:

ـ لا تتحيروا، لاخوف من تلوث المياه، الغاز الصخري يستخرج بنفس تقنية الحفاظات (البامبارس) التي نستعملها للأطفال!

هذا العبقري قال مرة لمهندس ألماني، كان يتفقد معه مشروع سد للمياه أسندت دراسته التقنية لشركة ألمانية:

ـ لمذا لم تملؤوا لنا هذا السد ب(گرونبورف)؟

كان (أبو العتاريس) يضن أن هذا الخمر ألماني، كان يجهل أن شركة (گرونتبورڤ) فرنسية ملك لعائلة من مدينة (ستراسبورڤ) في منطقة (ألزاس) شمال فرنسا.

كثرت زلات لسان هذا الشخص، لكن واحدة فجرت غضب منطقة (الشاوية) الأشاوس الذين أذاقوا الويلات لجنود المستعمر الفرنسي، عندما قال فيهم مستهزئا..(الشاوي حاشة رزق ربي!)

رئيس حكومة (بوتفليقة) يهين الشعب، تماما كما أهان رئيسه تلك الأم المسكينة التي كانت تبحث عن إبنها المفقود، ولم يكن لسياسة الحكومة التي يرأسها (سلال) سوى تقسيم الريع على البلديات يمنة ويسرة حتى تتمكن الدولة من إمتصاص غضب الشعب!

(بوتفليقة) حكم الجزائر لأربعة عهدات، كانت نكسات إجتماعية وثقافية وسياسية، حتى على الصعيد الدبلوماسي أصبحت الجزائر في عهده تأثر في السياسة الخارجية كما تأثر الذبابة عندما تحط على ظهر فيل!

فإجتماعيا، تشهد الجزائر قرابة ألف إحتجاج في السنة بمعدل ثلاثة إحتجاجات في اليوم، المواطن يشتكي غلاء المواد الأولية التي تضاهي أسعارها أسعار نفس المواد في الدول الأوروبية، دخل المواطن بين أدنى المداخيل في العالم رغم أن البلد من أكبر منتجي البترول والغاز، الحكومات المتعاقبة كان لها مشروع واحد أطال في عمرها وهو توزيع الريع لشراء الأمن الإجتماعي!

ثقافيا، أصبح الجزائري لا يحسن أي لغة ، لا العربية ولا الفرنسية ولا الإنجليزية، الإنتاج الأدبي منعدم والمسرح والسنما الجزائرية في غيبوبة تامة، النشاط الثقافي الوحيد، يقتصر على حفلات غنائية يحييها نجوم الطرب العربي وتكلف خزينة الدولة الملايير كل مرة، الشعب المسكين لا يحضر هذه الحفلات، تذاكر الدخول تساوي ثلث راتب المواطن البسيط !

الجامعات أصبحت مصانع لإنتاج بطالين بشهادات عليا، لينضمَّ الآلاف منهم سنويا إلى قائمة العاطلين عن العمل، هذه الجامعات التي تصنف كل سنة في ذيل الترتيب الإفريقي وراء دول تشهد فقرا مدقعا!

سياسيا، كل الأحزاب موالية للنظام عدى القليل من الأحزاب التي هُمشت ومُنعت من كل إعانة أو إشهار، الإعلام تحت رحمة الوزارة الوصية التي تغلق حنفيات الإشهار الذي يُعتبر المصدر الوحيد للقنوات والصحف والمجلات، في وجه كل من يحيد عن الخط التحريري الذي رسمته السلطة!

دبلوماسيا، تقمص (بوتفليقة) بدلة وزير الخارجية منذ سبتمبر 1963 ليومنا هذا، الخارجية ملعبه المفضل والكل يعلم أن الوزراء الذين كانوا يعينون في هذا المنصب لم تكن لهم صلاحية تذكر، حتى القضية الفلسطينية التي تعتبر خطا أحمرا بالنسبة للشعب الجزائري، تخلت

الدبلوماسية الجزائرية عنها كما جاء بصريح العبارة في برقيات (ويكيليكس)، أين أصبح السفير الجزائري لدى الأمم المتحدة (إدريس الجزائري) صديق (بوتفليقة) الحميم، والذي كان سفيرا للجزائر في (بروكسل) و(واشنطن)، يتودد للسفير الأمريكي كما جاء في البرقيات من أجل التوسط فيما يخص (إسرائيل)!

سفير الجزائر يريد أن يتوسط لإسرائيل، ليتني مت قبل هذا!

الفساد عم والبلاء طم وأصبح المجتمع الجزائري مجتمعا فرديا، عقيما لا ينتج ولا يبتكر، يجمعه البندير وتفرقه العصا!

علموا أولادكم أن الإخفاق في الإمتحان أشرف من الغش!

حكمتنا الكاسكيطة بالهراوة وعندما نحمل الحجارة يموت منا المئات، وتتحول القبعة بقدرة قادر إلى بدلة مدنية وربطة عنق، منظومة الحكم في بلادنا كالخلية الحيوانية، تتقاسم لتزداد وتتضاعف، فالحزب الواحد إنقسم إلى أحزاب عديدة تدافع عن نفس السلطة ونفس نظام الحكم!

الألم أصبح سطرا في خانة الخبرات على صفحة سيرتنا الذاتية، تمنيت لو بقينا تحت وطأة الحزب الواحد والحكم البوليسي ولم يمت منا ربع مليون جزائري!

سيجار (كوبا) قاسم مشترك بين كل من حكم بلادي الجريحة، (بن بلة) و(بومدين) و(شادلي) و(علي كافي) و(زروال) و(بوتفليقة)، رحم الله من مات وأطال في عمر من بقي، كلهم عساكر لا يعرفون سوى الأمر والطاعة، المطيع سيذل والعاصي سيجبر على الطاعة، وبين هذا ذاك، تبقى الجزائر الحبيبة معشوقة الجميع، يغتصبها من لا شرف لهم، ولا من فارس مغوار يدافع عن عرضها وحرمتها!

أخطأ كل منا في حق هذه المعشوقة الجميلة، العسكر الذين يضنون أنهم حماة العباد والبلاد بشرعيتهم التاريخية الكاذبة، واليساريون الذين يحسبون أنهم الحل الوحيد لأنهم يملكون الحقيقة والثقافة لتسيير البلاد بعدما شربوا ثقافة الغرب حتى الثمالة، الإسلاميون الذين يضنون أن الله

هداهم دون سواهم ونسوا أن الرسول الكريم كان رجل سياسة قاد أمة قبل أن يصبح إماما يعض الناس، ونحن الشعب لنا باع من المسؤولية في خراب هذا البلد!

بيوتنا، شوارعنا، مقاهينا، شواطؤنا، قاعات حفلاتنا، حافلاتنا، قطاراتنا، بواخرنا، طائراتنا كلها وسخة كما هي وسخة حياتنا التعيسة، والأدهى من هذا والأمر مساجدنا التي هي بيت الله وليست بيوتنا، المكان الذي ضرب الله لنا فيه موعدا دون حاجب ولا سمسار، جعلناها وسخة نتنة، لا يمكنك السجود فيها إلا وأنت حابس لأنفاسك طيلة السجود، كل سجاد عليه عطر مميز من جواربنا المبللة، عرصة المسجد أصبحت منبرا يجتمع فيها الناس بين المغرب والعشا للخوض في أعراض الناس، وفي الحر يتحول المسجد عبر كل القطر الجزائري إلى مكانا للقيلولة والشخير!

أعراسنا صارت فرصة للتباهي على الناس، وحُرِم الفقير من مآدبنا وأصبح المسكين غير مرغوب فيه في ولائمنا، الزواج أصبح مستحيل على الشباب الضيق الحال، بعدما أصبحت السيارة والشقة والهاتف الذكي وال(ديسك جوكي) والسفر إلى تركيا في قائمة طويلة ومستحيلة تطلبها البنت مهرا لها!

نعم لقد أبتلينا بحكام على شاكلتنا، ولن تصلح أمورنا حتى نتصالح مع أنفسنا، وتعود علاقاتنا مع أهلينا ومع الناس إلى فطرتها، دون غش ولا تحايل!

تحرينا الكذب حتى أصبح جزء من شخصيتنا وشخصية أولادنا، قل للطارق أنني لست هنا، قل للسائل في الهاتف أنني نائم، حتى الأطفال الصغار زرعنا فيهم الكذب والتحايل فصارت جملهم لا تخلوا من كلمة (أقسم) التي صارت تعترض كل جملة، كذلك الطفل الصغير الذي جا مهرولا لأبيه في آخر النهار وقال له:

- أبي إني والله لأكذب على أصدقائي والجميع يصدقني!

فرد عليه الأب في حسرة:

- سيأتي عليك يوم يا ولدي، ستقول فيه الحقيقة ولن يصدقك أحد!

كل معاملاتنا مغلفة بالريبة والشك حتى مع أقرب الناس إلينا، فانعدمت الثقة بيننا وأصبحنا أفرادا متشتتين لا مجتمعا متماسكا!

زرت أربع قارات، ولم أجد أجود من الجزائري، الكرم عندنا يسري في دمائنا منذ القدم، لكننا شعب سريع الإلتهاب، بطيء التسامح، نحترف الكراهية والبغضاء إلى حد لا يطاق ، وهنا مربط الفرس، علينا أن نحمي الأجيال القادمة من الكراهية التي زرعها أصحاب (الكاسكيطة) و (السيجار) في قلوبنا، علينا أن نترك الأجيال القادمة تبني جزائرها دوننا لأن مدة صلاحيتنا قد إنتهت ولا نستطيع أن نأثر لا على الحاضر ولا على المستقبل!

آذان الآيفون!

(الآيفون) هاتف ذكي بحق!

أصبح رفيقه الأول دون منازع، يأخذ به الصور كلّما خرج للتنزّه في لندن الجميلة، يكتب فيه أفكاره التي تتزاحم في مخيّلته ولا تستأذن حين تريد الخروج، يستمع به إلى الأغاني التي يحبّها وإلى القرآن الكريم الذي يهدئ من روعه كلّما تكالبت عليه الدنيا وأبكته هموم الأيام!

(الآيفون) بتطبيقاته المختلفة وسرعة تدفّق الإنترنت في أوروبا، يجعل الإنسان في اتّصال دائم مع الناس والعالم الذي يحيط به، كلّ ما يحدث في العالم الذي أصبح قرية صغيرة يصل إليك في اللحظة نفسها، لا شيء يفوتك، أنت مربوط بالعالم أربع وعشرون ساعة في اليوم!

كان الآيفون مؤذنه للصلاة كذلك، إختار أذان المسجد النبوي بالمدينة المنورة الذي يذكّره بتلك الأيّام الحلوة التي قضّاها في أوّل عمرة له، في تلك الأيّام عرف لماذا اختار رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ملاذا له، إنّها طيبة بحقّ وسكانّها طيبون ليسوا كسكّان (مكّة) الذين يتعاملون مع الحجّاج والمعتمرين بشدّة وغلظة ليستا من الإسلام في شيء!

لم يسمع المؤذن في ذلك اليوم، أسهرته مذكرات الرّئيس الراحل (الشادلي بن جديد) الذي كتب بكل برودة دم كيف أعدم أصغر

ضابط ومثقّف عرفته الثورة التحريرة الجزائرية، (الكولونيل شعباني)، (الشادلي) يحكي وكأنّ الأمر طبيعي للغاية كيف كلّمه (بومدين) وطلب منه إعدام الضّابط الشّابّ بأمر من الرّئيس (بن بلة).

هكذا كُتب تاريخ الجزائر، اغتيالات، تصفيات، مؤامرات، انقلابات!

فتح عينيه على النافذة التي سمحت لأشعّة الشّمس بالتخول، إنّها الثامنة والنصف!

رسالة من رقم هاتف أمريكي مكتوبة بالعربية:

ماما ماتت! رد علي أرجوك أنا بحاجة إليك!

لم يصدق ما قرأ، أغمض عينيه، لعلّها أضغاث أحلام لا غير، بقي مدّة طويلة لا يريد النظر من جديد إلى شاشة هذا الهاتف اللعين!

نفس الرّسالة بقيت مرصّعة على شاشة الهاتف.. ماما ماتت!

إنّها هي، وكأنّه يسمع صوتها وصراخها، كأنّ صوت بكاءها يملء غرفته!

وفجأة فتح الدرج المغلق في ذاكرته!

حاول الاتصال بالرّقم عدة مرّات دون جدوى، ضل الهاتف مغلق!

تذكّر أمّه الحبيبة رحمها الله، كيف قبّلها آخر مرّة وتحسّس وجهها تحت الكفن الأبيض، كيف دخل معها حفرتها التي ستأوي جسدها الهامد، كيف كان النّاس حول القبر ينظرون إليه ويبكون رحيل خالتي (المايسة)!

تذكّر الرسالة التي كتبها لأمه بعد موتها..

أمي،

لن تزوريني بعد اليوم، لن أنتظرك في المطارعلى جمر، لن أغرق في دموعك لحظة اللّقاء، لن تقدّم لي يداك الكسرة والفلفل المرقّد في زيت الزّيتون، لن أسهر مع حكاياتك وأنت تسردين علي أيّامك دوننا ، نحن أولادك الغرباء، لن نذهب معا في فسحة على ضفة البحيرة الجميلة، لن أشتري لك جليدك المفضّل بالجوز والشوكولاطة، لن أدلّك رجليك المتعبتين، لن أبعث لك القهوة ولا العطور.. لمن سيغنّي في بيتنا العصفور؟ لمن سيؤذّن الديك؟ وستبحث عنك السّلحفاة في كلّ مكان..

لن أسمع صوتك الحنين في الهاتف، لمن سأقول أن بنيتي أصيبت بالزكام والحمى؟لمن أشكو نهاري الطويل المتعب؟ ولمن أحكي آخر رحلة لي إلى بلاد بعيدة؟ من سيقول لي وشراك وليدي؟ وماذا أكلت هذا العشاء؟ وضع قليلا من الليمون على رأسك قبل النوم يا بني.

لقد غرست شجرة أمام قبرك أمّي، وستسقيها سحابات بيضاء ودموع الذين أحبّوا فيكِ كلّ ما هو أنت!

زارنا رمضان ولم يجدك لم يجد سوى الحمامات البيضاء على سطح بيتنا الحزين، سأل رمضان الحمامات:

ـ أين العجوز التي كانت تفتت لكم الخبز

قالت الحمامات:

ـ نحن ننتظر منذ عام

قال رمضان:

ـ مالي لا أرى السّلحفاة

ردّت عليه حمامة مكسورة الجناح:

ـ لقد هاجرت منذ رحيل العجوز

بكيت لمجيء رمضان ولذهابه، فبعد سفرك الأخير، لم يبق لي عيد أحتفل به، أصبح قلبي صائما عن كلّ شيء إلا عن ذكراك!

لم أستطع العودة إلى مدينتنا بعد رحيلك، ولم أستطع العودة إلى بيتنا البسيط السّعيد، الذي ملأته بالأشجار والزّهور، لم أفهم بعد من أين كنت تستمدّين ذلك التحدي، كيف أخرجت من الإسمنت أشجارا خضراء؟

أمّي، كنت عندما أحتاج إليك أناديك (خالتي المايسة) كما كان يحلو لصديقاتك اللّواتي كنّ يتردّدن عليك كلّ أسبوع، كنت أميرة تحبين زيارتهنّ، كنّا نستمتع معهنّ بطريقتك الخاصّة في استضافتهنّ. كنّا جميعا نقف حيارى أمام القهوة الإيطالية، والشكولاطة السويسريّة التي كنت تقدّميها لهنّ. كنّ يسافرن معك وأنت تقصّين عليهنّ سفرك الأخير لزيارة أولادك في أوروبا.. أوروبا التي كانت تبكيك كلّ ليلة لأنّها سرقتنا منك!

أمّي، من أي طينة أنت؟

كيف يخرج من رحمك شيوعي سجنه (بومدين)، وإسلامي كان ضابطا قتلته رصاصات الجيش الذي أمضى فيه سبع سنين من عمره، ورجل أعمال ناجح، ومخرج سينمائي، وممثل مسرحي، ولاعب كرة بارع، وأكون أنا آخر أولادك، ممقوتا من الوزير الشيوعي والوزير الإسلامي اللذان صارا يمجّدان حكم (بوتفليقة)، وأمنع أنا من دخول البلاد وزيارة قبرك؟

أمي، لازلت عندما أرجع متعبا من العمل، أحمل سمّاعة الهاتف لأسمع صوتك، أنتظر رنّة الهاتف طويلا، ثمّ أتذكّر أنّك لست في البيت، وأنّك التحقت بأبي ربّي يرحمه، في مقبرة آمنة تحفّها أشجار الصنوبر بقرية (فـجال)..

أمّي، لم أجد بعد جوابا لبنيّتي، فكلّما سجنت عنقي بين ذراعيها وهمست في أذني أبي إشتقت إلى جدّتي، تتوقّف الحياة في دمي وتسافرمع الآهات!

لعمري لقد أصبحَتْ إبنتي أمّي في الخوف عليّ، هذا ما وَرثَتْهُ عنكِ!

كان الجري حليفه الوحيد في هذه الأوقات، حين يفقد القدرة على التحكّم في الأمور والأحداث!

ركض حتى غابت الشمس، حتى أحسّ بالبرد يعبر ألبسته الرياضية التي بلّلها عرقه، لا يدري منذ متى وهو يجري، ولا كيف وصل إلى هذا المكان الذي يجهله، أوقف سيارة أجرة ورجع إلى بيته منهك القوى مهزوم الخاطر.

كان يلوم نفسه وهو في طريق العودة كيف لم يستيقظ كعادته للصّلاة، كيف لم يردّ على مكالمة إنتظرها منذ أشهر؟

ويعود قلبه المسكين إلى الخفقان، ويتذكّر أغنية الحبّ اللّعينة، ويتمرّد على عقله الذي يحذره من دموع الفراق، وكلّه شفاء وقُبل لحلمه الجديد، (حيزية) عادت لتقتله كلّ ليلة قبل طلوع الشمس فعاد قلبه المسكين إلى الخفقان!

كتب لها..
تمنيت أن أواسيك
أن أمسح دموع قلبك الحزين
أن تغرق في أحضاني مآسيك
أن آخذ بيدك في طريق مقمر
إلى طرف الدنيا..
إلى طرف العمر..
إلى طرف النسيان!
تمنيت أن أرثيها..
وأنسيك لحظة
أنّ الحياة دقائق وثوان..
تمنيت أن أواسيك
أن أبحر في عينيك
التي تأبى البكاء والعزاء
تمنيت أن أكون حينها أمّك
لأعيد البسمة على شفتيك
تمنيت أن أكون منديلك..
أقبّل بكل دمعة خديك!

مرّت الأسابيع والشّهور، منذ أن تلقّى تلك الرّسالة التي تخبره فيها بأن أمّها قد توفيت، تفهّم صمتها الطويل، كان يعلم قربها من أمّها التي كانت صديقتها وأمينة سرّها، كان يعلم الفراغ الذي يملأ حياة الإنسان بعد ذهاب الأمّ!

انتظر رسالة منها كلّ يوم، جملة واحدة، كلمة واحدة، لكنّ شاشة هاتفه بقيت صامتة!

< حبيبي لا تنتظرني، لا أريد أن تقضي بقية عمرك في إنتظاري، لعله قدرنا أن لا نلتقي>

بهذه الرّسالة أوقفت الدم في عروقه، بهذه الكلمات حكمت عليه بالموت البطيء، الروسيون يضعون رصاصة واحدة في مسدسهم، لتموت مرتين، مرة وأنت تنتظر الرصاصة، ومرة حين تسقطك قتيلا!

معها انقلبت اللّعبة، هنالك خمس رصاصات، وبيت واحد فارغ في المسدّس، فإما أن تحيا مرّة أو تموت خمس مرات!

كتب لها:

لماذا ؟ لماذا تصبح الكلمات كالقنابل عندما تريدين قتل قصّتنا، لماذا تستبيحين أجمل شيء كان؟ لقاؤنا المجنون.. لماذا يصبح الحبّ مسجونا عندما تقرّرين بأنّ الوقت قد حان لأخرج من قلبك؟ علم هذا أم فنّ من الفنون؟ هل هنالك زر في قلبك ليدخل ويخرج منه الممثّلون؟

لم تردّ عليه، لا في يومها ولا في الأيّام التي تلت!

كسّر كلّ الأدراج في ذاكرته، لم يبقِ إلا درجا واحدا، وضع فيه طائرة تابعة ل(بريتيش آر وايز)، غرفة فندق في مدينة لم يزرها، رائحتها، يداها وهما تتشبثان به كبالون للنجاة من الغرق!

سقطت كلّ مواعيده معها، كما سقطت مواعيده مع الجزائر!

في الخامس والعشرين من نيسان

خرجتِ تحت خيوط المطر

الشتوة بنيسان جواهر ما لها أثمان

يقول عنكِ العرب

كجوهرة مخبّأة تحت خمس وعشرين جدار

كقصيدة حب لم تكتب

لكي لا تستبيح دم الأمل الجريح

كصراخ قلب غُلّقت أبوابه مذ رحلت

فعاد إلي صداه

مرصّعا بسنابل شعركِ الغجري

كخيوط القيثارة المقطوعة

بعدما عزفتْ آخر لحن حزين

كانت قهقهاتكِ آخر ما كتبتِ على صفحتي

التي أفلست بعدما هجرتها نقاطكِ المتتالية..

خمسة وعشرون دمعة

تنتظر وراء حاجبي للولوج

خمسة وعشرون زهرة

تموت تحت الحصار

خمسة وعشرون شكوى

يخطها قلبي إليكِ

ليل نهار

الآن أصبح لربيعي ثورة

بعد أن أحرقتِ حروز قصتنا

بجذوة من نار.

وجد نفسه وحيدا مرة أخرى، يسافر دون حقائب، يفر من قطار إلى طائرة ومن عاصمة إلى أخرى، نعم. السفر قطعة من عذاب!

عندما يقسم التمرات الثلاث ويبل ريقه بكأس من اللّبن، تعود به الذكريات إلى بيته البسيط الذي تحفّه أشجار أمه ويتوسّطه بئر ماؤه بارد عذب، تعود به الذّكريات إلى أمّه الحبيبة وهي تطلب منه أن يذوق مكانها ملح الشربة في رمضان..

إلى أبيه الذي كان يضع الدلاّع في دلو داخل البئر ليبرد، ثم يعصر للجميع الليمون قبل آذان المغرب..

إلى تلك المائدة المستديرة التي كانت تجمع عائلته في حوش البيت تحت شجرة العنب..

إلى تلك - الزرزومية - التي كانت تطلّ عليهم كل رمضان.

إلى تلك الأيّام الجميلات..

اليوم وبعدما أصبح يفطر على آذان الآيفون وحيدا أمام قناة (البيبيسي)، أدرَكَ أنّ السفر هو العذاب كلّه!

أحنّ إلى بيتنا الجميل المتواضع، أفنى أبي حياته في بنائه، بدأ ببناء غرفة ثمّ غرفتين، ثمّ حفر بئرا في فناء البيت مع خالي (السعيد) الذي فقد بصره سنوات بعد ذلك، ثمّ لمّا سمحت له ظروفه أكمل الطابق العلوي، لذا تجد في بيتنا، كلّ غرفة ببلاط مختلف، هنالك غرفة بنوعين مختلفين من البلاط، ذلك لأنّ أبي كان يشتري كل مرّة ما يسمح به جيبه، لا ما تتطلّبه المساحة التي كان يجب أن تغطّى!

أبي بعيد النظر، اليوم في أوروبا، تجد في المطاعم الكبيرة والفنادق الفاخرة في نفس البهو، نوعين أو ثلاثة من البلاط!

أحنّ إلى حيّنا الذي لم يتغيّر منذ الاستقلال، بيوت من طوب أحمر وبني، غالبا دون طلاء، أعمدة من حديد فوق السّطوح تعد بغد أفضل يكتمل فيه البناء، في حيّنا الكلّ يعلم متى يبدأ بناء بيته، لكنّ نهاية البناء تبقى أمرا مبنيّا للمجهول،لأنّ مواد البناءتباع بأسعار خيالية تتحكّم فيها مافيا الإسمنت، و النّاس في حيّنا جلّهم من البسطاء!

منازل حيّنا، قصّة حياة طويلة، غير منتهية البناء، على كلّ السّطوح، أعمدة حديدية تصدأ، منتصبة في السّماء، تنتظر الفرج!

أحبّ عيد الأضحى، أحبّ رائحة الخروف الذي يشتريه أبي أيّاما قبل العيد، أحبّ الحنّاء التي كانت أمي تضعها بين قرنيه، أحبّ رائحة

وجد نفسه وحيدا مرة أخرى، يسافر دون حقائب، يفر من قطار إلى طائرة ومن عاصمة إلى أخرى، نعم. السفر قطعة من عذاب!

عندما يقسم التمرات الثلاث ويبل ريقه بكأس من اللّبن، تعود به الذكريات إلى بيته البسيط الذي تحفّه أشجار أمه ويتوسّطه بئر ماؤه بارد عذب، تعود به الذّكريات إلى أمّه الحبيبة وهي تطلب منه أن يذوق مكانها ملح الشربة في رمضان..

إلى أبيه الذي كان يضع الدلاّع في دلو داخل البئر ليبرد، ثم يعصر للجميع الليمون قبل آذان المغرب..

إلى تلك المائدة المستديرة التي كانت تجمع عائلته في حوش البيت تحت شجرة العنب..

إلى تلك - الزرزومية - التي كانت تظلّ عليهم كل رمضان.

إلى تلك الأيّام الجميلات..

اليوم وبعدما أصبح يفطر على آذان الآيفون وحيدا أمام قناة (البيبيسي)، أدرَكَ أنّ السفر هو العذاب كلّه!

أحنّ إلى بيتنا الجميل المتواضع، أفنى أبي حياته في بنائه، بدأ ببناء غرفة ثمّ غرفتين، ثمّ حفر بئرا في فناء البيت مع خالي (السعيد) الذي فقد بصره سنوات بعد ذلك، ثمّ لمّا سمحت له ظروفه أكمل الطابق العلوي، لذا تجد في بيتنا، كلّ غرفة ببلاط مختلف، هنالك غرفة بنوعين مختلفين من البلاط، ذلك لأنّ أبي كان يشتري كل مرّة ما يسمح به جيبه، لا ما تتطلّبه المساحة التي كان يجب أن تغطّى!

أبي بعيد النظر، اليوم في أوروبا، تجد في المطاعم الكبيرة والفنادق الفاخرة في نفس البهو، نوعين أو ثلاثة من البلاط!

أحنّ إلى حيّنا الذي لم يتغيّر منذ الاستقلال، بيوت من طوب أحمر وبني، غالبا دون طلاء، أعمدة من حديد فوق السّطوح تعد بغد أفضل يكتمل فيه البناء، في حيّنا الكلّ يعلم متى يبدأ بناء بيته، لكنّ نهاية البناء تبقى أمرا مبنيّا للمجهول،لأنّ مواد البناءتباع بأسعار خياليّة تتحكّم فيها مافيا الإسمنت، و النّاس في حيّنا جلّهم من البسطاء!

منازل حيّنا، قصّة حياة طويلة، غير منتهية البناء، على كلّ السّطوح، أعمدة حديدية تصدأ، منتصبة في السّماء، تنتظر الفرج!

أحبّ عيد الأضحى، أحبّ رائحة الخروف الذي يشتريه أبي أيّاما قبل العيد، أحبّ الحنّاء التي كانت أمي تضعها بين قرنيه، أحبّ رائحة

الشّواء التي تنبعث يوم العيد، من كلّ البيوت في حيّنا المتواضع، كلّ العائلات ستأكل (المشوي)، لا فرق بين غنيّ وفقير اليوم!

أحبّ العيد، لأنّني أقبّل أبي بعد الصّلاة وأغرق في رائحته العجيبة، خليط من مسك ورائحة عطر أخرى لا أعرفها، لعلّها رائحة الصدق والإطمئنان!

كنت أحبّ تقبيل أبي، لكن في مجتمعنا البوح بشعورنا حتّى مع أقرب النّاس إلينا شيء صعب!

لذا كنت أستغلّ المناسبات كعيد الأضحى لتقبيل (عمي الحوّاس) مثنى ورباع..

كان أبي بائعا للكتب القديمة المرقعة، لا زلت من حين لآخر أحن إلى ذالك الدكان الصغير، لأجد رائحة الكتب القديمة التي كانت تحيط بأبي وكأنها هي التي تحرسه!

تركت بلادي التي لا تؤمن بالحبّ وبالقبل، كما إيمانها بالموت وبالرّصاص!

هاجرت من بلاد علاقات النّاس فيها مبنية على الغشّ والكذب، هاجرت إلى بلاد الكفّار، فوجدت معاملاتهم مبنية على الصدق والأمانة، هاجرت إلى بلاد، النّاس فيها يقبّلون بعضهم البعض حتى خارج أيّام العيد!

هاجرت إلى بلاد الحبّ فيها حلال مستباح، والتعبير عنه فنّ يتقنه الجميع، كنت قنبلة معبّأة بالحبّ، انفجرت في (باريس)، واليوم لم أعد أحزن عندما يناديني الناس (عينين الـقـْـاط).

غاني مهدي

لندن، 25 أفريل 2015

الفهرس

مصادر هذا الكتاب:

1. (مذكرات الشادلي بن جديد)، (منشورات القصبة)
2. (نصف قرن من الكفاح)، مذكرات العقيد الطاهر زبيري، (الشروق للنشر)
3. (عميروش، حياة، موتتان، وصية) دسعيد سعدي، (لارماتان للنشر)
4. (الإشكالية الجزائرية)، محمد شفيق مصباح، (لوسوار دالجيري للنشر)
5. (القصة السرية للبترول الجزائري)، حسين مالتي، (لاديكوفارت للنشر)
6. (الجزائر، باريس، قصة حميمية) ، (كريستوف ديبوا، ستوك للنشر)

منشورات الثقافية

https://www.facebook.com/GhaniMahdi
https://twitter.com/Ghanimahdi
https://www.youtube.com/user/WGFJ1

